الجودرية

عن تاريخ الجبرتي بتصرف

محمد جبريل

الجودرية

عن تاريخ الجبرتي بتصرف

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

الجودرية

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٣٨٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

الباب الأول	١١
الباب الثاني	٣٣
الباب الثالث	٤٣
الباب الرابع	٥٩
الباب الخامس	٧١
الباب السادس	٧٧
الباب السابع	٩١
الباب الثامن	١٠٩
الباب التاسع	١٢١
الباب العاشر	١٣١
الباب الحادي عشر	١٣٩

إلى عاشق القاهرة
صديقي الدكتور أيمن فؤاد سيد

«إنها القاهرة ... كم قهرت جبابرة!»

الجبرتي

الباب الأول

قدِمت الأنباء على يد السعاة من ثغر الإسكندرية، بأن الفرنجة نزلوا الشواطئ الشمالية للبلاد يوم الإثنين الثامن عشر من المحرم سنة ١٢١٣من الهجرة النبوية الشريفة، الموافق الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨من الميلاد. نزل إلى البر — من قارب صغير — عشرة رجال. طلبوا مقابلة كبار المدينة. قالوا إنهم إنجليز جاءوا للتفتيش على الفرنسيين؛ لأن الفرنسيين خرجوا بعمارة كبيرة، وربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم.

رفض السيد محمد كريم — رئيس القوم — هذا القول. حدس أنها مكيدة، وضغط على الكلمات: نحن أحق بالدفاع عن أنفسنا.

قالت رسل الإنجليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر، محافظين على الثغر، لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه.

قال السيد محمد كريم: هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا.

وردت المكاتبات — في اليوم الثالث — أن مراكب الإنجليز عادت من حيث أتت؛ فاطمأن الناس، وسكن القيل والقال.

حين لاحت سفن الأسطول الفرنسي في الأفق، اضطرب أهل الإسكندرية، وتوقعوا الشر. هيئُوا السلاح، رمَّموا الحصون القديمة، تكوَّنت أعداد من المتطوعين وقبائل البدو. توالت المكاتبات إلى القاهرة، من الثغر، ومن رشيد ودمنهور، بأن مراكب وعمارات كثيرة للفرنسيين، وصلت إلى الإسكندرية. وصف السيد محمد كريم محافظ الإسكندرية سفن الفرنسيين بأنها مثل الجبال، بأعداد غطت مياه البحر. قال إن على المماليك أن يدفعوا المقابل لعيشة الترف والأبهة التي استلبوا بها حياة آلاف المصريين وأمنهم. ضاق بمكاتبات

أمراء المماليك ردًّا على مكاتباته. طالبهم بالتنبه إلى الخطر، والدفاع عن البلاد ضد هجمات المغيرين. لم يكن في الإسكندرية أكثر من ستة آلاف نسمة، بعد أن قتل الطاعون آلافًا أخرى في أواخر القرن الثامن عشر.

أظهر الأمراء غرورهم واستكبارهم. زعموا أنهم القوة القاهرة، والغلبة التي طبقت شهرتها الآفاق في جهات العالم الست، وأن سائر دول أوروبا — وليست فرنسا وحدها — إذا حاولت منازلتهم، ولم يأتهم المدد من الباب العالي، فليس في ذلك ما يستوجب الخوف ولا القلق. رءوسهم تحصدها السيوف، وأجسادهم تدوسها سنابك الخيل.

بدأ الجيش الفرنسي رحلته من طولون — وهو ميناء فرنسي — قاصدًا الإسكندرية. استولى على جزيرة مالطة في الثاني عشر من يونيو ١٧٩٨م، ثم ظهر أمام سواحل الإسكندرية في أول يوليو من العام نفسه. غزو مالطة أتاح لنابليون مددًا، ربما لم يكن يصِل إلى مصر لو لم يحصل عليه، مدافع وبنادق وبراميل بارود وسفن حربية، بالإضافة إلى كنوز ذهبية خلَّفها الرهبان وزخارف ذهبية من الكنائس، حُولت إلى سبائك، حول نصف قيمتها إلى باريس لتجاوز بها حكومة الإدارة أزمتها المالية، وأبقى النصف الأخر لتدير منه الإدارة المحلية أمور الجزيرة.

لو أن مراد بك أنصت إلى نصيحة المسيو روزيتي قنصل النمسا! أدرك الرجل أن احتلال مالطة هو أولى الخطوات نحو الإسكندرية. قال: مصر هي المقصودة بحملة الفرنسيين.

رفع مراد بك كتفيه، وأظهر السخرية: لا شيء يدعونا للخوف من الفرنسيين، خاصة إذا كانوا كهؤلاء التجار الموجودين عندنا. عندما يصل منهم مائة ألف، يكفي أن أرسل للقائهم التلاميذ المماليك الشبان، يقطعون رءوسهم بحد ركاب سروج جيادهم!

ثم وهو يتأمل — في المرآة المقابلة — القامة الفارعة الممتلئة، والوجه الشركسي الشاحب المستدير، والعينَين الممتلئتَين القاسيتَين، يعلوهما حاجبان كثيفان، والندبة الطويلة على خده الأيمن، والعمامة المزركشة، والعباءة الحريرية الفضفاضة، والسيف المتدلي من الجنب، يضوي بالبريق: إذا فرضنا وصولهم إلى أرضنا؛ فإن مماليك الخزنة وحدهم يكفوننا المئونة ويقطعون دابرهم.

يثق في قدرة جنوده على تحطيم جيش الفرنسيين بسنابك الخيل، وحصد رءوس جنوده ببوارق السيوف.

قال روزيتي: سيدي …

قاطعه مراد بك بإشارة من يده: إنهم فستق خُلق للأكل لا للحرب!

هل يفيد قنطارا البارود اللذان أمر مراد بك بإرسالهما — تحت إلحاح روزيتي — إلى الإسكندرية؟

كان مراد بك أقرب — في طبعه — إلى الخوف وإيثار السلامة، وإن غلَّف ذلك بكلمات تبين عن الشجاعة والاندفاع. لم يأخذ شيخ البلد ولا الأمراء كلماته مأخذ الجِد حين أقسم أن يقيم من جماجم الفرنسيين منارات في ميادين القاهرة. كان أسلوبه العسكري يعتمد على الكر والفر؛ فهو يهاجم إذا لاحت ثغرة، وينسحب إذا تأزمت الأمور. وكان أهم ما يعتز به؛ امتلاك أعداد من أجمل المسدسات الدمشقية والغدارات والمسدسات والأحجار الكريمة والتحف والملابس الموشاة.

فصل

الأنباء الأولى مفرحة.

هاجم إنكشارية المماليك طليعة جيش الفرنسيين. قتلوا قائدها، وقطعوا رأسه. طافوا بها شوارع الإسكندرية. لم يفطنوا إلى أن من هاجموهم هم الطليعة، وأن المدينة بلا حصون ولا جيش للمدافعة.

في يوم الإثنين الثامن عشر من محرم، نزلت جماعة من رجال الفرنسيين ناحية العجمي، يرافقهم الجنود والأسلحة. دعَوا العديد من رجالات المدينة إلى السفن الواقفة بالقرب من الساحل. بادروا بإلقاء القبض عليهم فور صعودهم، وانطلقوا — ومعهم آلات الحرب — ناحية ميناء العجمي. أسقط الأهالي مشاعر الفرحة. بعث السيد محمد كريم إلى مراد بك يستعجل النجدة.

قال مراد بك للوالي العثماني بكر باشا: إن هؤلاء الفرنسيين ما دخلوا البلاد إلا بإذن الدولة العثمانية، ولا بد أن الوزير عنده علم بتلك النية.

قال بكر باشا: يجب ألا تتكلم بهذه اللغة؛ فلا يمكن لدولة بني عثمان أن تسمح بدخول الفرنسيين بلدًا إسلاميًّا.

وأشاح بيده: دع عنك هذا الكلام، واستعدوا للقتال!

قال مراد بك للمسيو روزيتي: اكتب للفرنسيين إنذارًا ليخرجوا من الإسكندرية.

قال روزيتي: إنهم لم يأتوا إلى مصر لكي يرحلوا عند أول إنذار.

قال مراد بك في صوت متلكئ: عليك أن تطالبهم بالرحيل.

افترَّت شفتا روزيتي عن بسمة باهتة: هم لم يحضروا بإذني فيخرجوا منها بإذني.

حدجه بنظرة مرتبكة: ما الذي يريده هؤلاء الموتى من الجوع؟

ثم وهو يغالب شعوره بالقلق: إن كان ولا بد فأرسل إليهم مع المكتوب خمسين ألف فرنك ليرتحلوا.

سكت روزيتي، ثم قال: أخشى أن عليكم الاستعداد للدفاع!

نجدة مراد بك مستعصية. ثلاثة عشر رسولًا، وصلوا القاهرة في ليلة واحدة. الفرنسيون على الأبواب، ولا حل إلا أن يدافع أهل الإسكندرية عن مدينتهم. حصنوا أبواب المدينة، وزودوا القلاع بالمدافع والذخيرة، ووزعوا البنادق على الأهالي.

طالعت الإسكندرية حملة نابليون في نهاية الأفق: البيوت القليلة المتناثرة، والتلال الرملية، وعمود السواري، وقلعة قايتباي، وقلاع المراكب المتباعدة.

صعد القائد العام إلى قاعدة الجرانيت الأحمر التي ينتصب فوقها عمود السواري. أطل على الأمكنة المحيطة، والممتدة في الآفاق، المسلات البطلمية، والمآذن، والأسوار القديمة، وبقايا القلاع. في داخلها، وأعلى السور الهائل ذي الفجوات الواسعة، رجال ونساء، تسلحوا بالبنادق والرماح. امتزج التصور — في داخله — بمشاعر التوقع والتحدي. هو في المدينة نفسها التي بناها الإسكندر، رافقته سيرة المقدوني منذ بدأ الإعداد للحملة. صحب الإسكندر فلاسفة وعلماء وفنيين في حملته على مصر وفارس والهند. حرص هو على الفعل نفسه. الإسكندر قدوته ومثَله الذي يَحتذي خطاه في حملته المشرقية. حمل الجيش معه مكتبة هائلة تضم ٥٥٠ مصدرًا ومرجعًا، ومواد للطباعة باللغات الثلاث: العربية والفرنسية واليونانية، ومعملًا كيميائيًّا، ومكتبة فيزياء، ومكتبة تاريخ طبيعي، ومرصدًا، وتجهيزات كاملة لصناعة المناطيد وقيادتها. ضم نابليون إلى حملته رسامين وكتابًا ومساحين وفلكيين وعلماء حيوان ونبات ومهندسين معماريين ومهندسين مدنيين وأطباء وصيادلة وطباعين ومؤلفي موسيقى ومترجمين وعلماء آثار ومستشرقين. يهمه أن يستند إلى العلماء والفنانين والمؤرخين إلى جانب اعتماده على العساكر. المدينة التي يبشِّر بها لا تلجأ إلى البندقية وحدها، لكنها تلجأ أيضًا إلى العلوم والفنون والآداب. هؤلاء هم صُناع إمبراطورية الحلم. أضاف إلى من رافقوه إداريين يُعِدون الترتيبات. قال: لقد نقلتُ باريس إلى مصر. أهمل

الإشارة — في خطبه ومذكراته وبياناته — إلى الإمبراطورية التي يحلم بها، إلى المساحة الجغرافية في المنطقة المحملة بالخير، وإمكانية السيطرة، ووعد المكانة.

قدم بالتصور أن مصر ليست ملكًا للعثمانيين، وليست ملكًا لأحد. إذا لم تحتلها فرنسا؛ فإن إنجلترا لن تفلت الفرصة. عليه أن يضع الخطط لطرد الإنجليز من جميع الممتلكات الشرقية التي يستولي عليها، يحتل خليج السويس، يضمن الملكية المطلقة على امتداد البحر الأحمر، يحافظ — في أثناء ذلك — على علاقة جيدة مع السلطان العثماني. في باله رسالة ليبنتز إلى لويس الرابع عشر، عن تحقيق ما سعى إليه الإسكندر قديمًا؛ السيطرة على إمبراطورية البر والبحر من خلال السيطرة على مصر. معزولة في الصحارى الواسعة، بحر من الرمال لم تطأه قدم منذ حملة الإسكندر. من المستحيل أن تصلها نجدات برية، وإن كان اتصالها متاحًا بمناطق الشرق. عشرة أيام تفصل بين القاهرة والقسطنطينية، لا تقتصر السيادة الفرنسية على البحر المتوسط، وإنما تمتد إلى بحر الأدرياتيك. تتحول مصر إلى مستعمرة حقيقية لفرنسا في هذه المنطقة.

درس كل ما يتصل بمصر في كتابات الرحالة الفرنسيين: الديانة التي تعتنقها، الشرق الذي تنتمي إليه، جغرافية المنطقة، العادات، التقاليد. قرأ كتاب دي ماريني «تاريخ العرب» بأجزائه الأربعة، وكتاب فولني «الرحلة في مصر وسورية» وكتاب سافاري «رسائل عن مصر». اكتفى بالحديث عن الحضارة الغائبة عن المنطقة منذ عصور الفراعنة، وصل ما كان بما أصبحت عليه المدنية الأوروبية: ربط تجارة الهند بأسواق فرنسا، وإلحاق خسائر مؤكدة بالتجارة البريطانية المنافسة، تسويق المنتجات الفرنسية في إفريقية وجزيرة العرب. وضع حواجز في مضيق السويس تفصل بين مصر وسورية؛ فيأمن المخاطر القادمة من الشرق، فتح المجال لتبادل حر بين البحر المتوسط والبحر الأحمر وبين فرنسا والهند، تحول مصر إلى مستودع للبضائع الواردة من أوروبا وآسيا، زرع الريف على الطريقة الفرنسية بتنظيف قنوات الري وبحيرة موسى، استنبات الأشجار المعمرة ليفيد ظلها في تلطيف حرارة الجو، إعادة دور مصر مخزنًا للغلال كما كانت في أيام الرومان، كشف المستور من التاريخ المصري القديم.

أحاطت فرق الفرنسيين بالمدينة من ثلاث جهات؛ من الغرب، ومن باب رشيد، ومن باب سدرة. تولى جماعة من الفرسان مقاتلة طلائع الفرنسيين قبل اقترابها. حاولوا، ومن انضم إليهم من العربان، أن يصدوا المغيرين. لكن الدائرة دارت عليهم. اقتحم أعداد من جنود الفرنسيين أبواب المدينة. تسلق الأسوار أعداد أخرى. ظل آخرون خارج المدينة. دخل الفرنسيون الإسكندرية في الثالث من يوليو. غابت الرءوس المدبرة باعتقال رءوس البلد

ووجهائها، وزاد عويل النساء، وصياح الأطفال، من انتشار الفوضى، وعدم إحكام التدبير. طلبوا الأمان من الفرنسيين.

الغزو الجديد مخالف لما اعتادته مصر من غزوات. هو يختلف عن محاولات البدو للإغارة على مدن الحدود وقراها، فيسهل على الأمراء صدهم وطردهم إلى ما بعد الحدود. أيقنوا أن القوات المهاجمة ستمتلك الإسكندرية دون مقاومة. لاذ جنود الأمراء بالفرار، وظل شعب المدينة بلا حول ولا قوة، ولا سلاح يدافع به عن نفسه، وخلت الأبراج من آلات الحرب والبارود.

بدا أن المدينة استسلمت. لكن رصاص البنادق انهمر من طاقات المساجد ونوافذها.

لم يكفَّ المقاتلون من أهل الإسكندرية عن القتال. دارت المعارك في الشوارع والحارات والخلاء. انهالت طلقات الرصاص من النوافذ والشرفات والأسطح، ومن خلف الأبواب والمتاريس. أصيب الجنرال كليبر بطلق ناري لامس جبهته، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر، وقتل وأصيب ضباط آخرون.

بدت المذبحة وشيكة، لا يقتصر خطرها على المصريين وحدهم، فهي تشمل الفرنسيين أيضًا. مثلت حاجتهم للجوع والعطش حافزًا إضافيًّا للاقتحام، واستكمال الغزو. أعملوا القتل في كل من يصادفهم. لم يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل. لم يأبهوا باستغاثات الرحمة، وإن تركوا — في النهاية — من لا يؤبه لهم. فقد المصريون سبعمائة غالبيتهم من النساء والأطفال، بينما فقد الفرنسيون ثلاثمائة ضابط وجندي.

بلغَت بونابرت تعليقات الجنود، ما بين الهمسات والآراء المعلنة: لا بد أن الجنون هو الذي جاء بهذه الحملة، أيُّ تهور قادنا إلى هذا البلد؟ نحن ندفع ثمن طموح الجنرال. وعدَهم قبل أن تنطلق الحملة من طولون بأنه — عند العودة إلى فرنسا — سيكون مع كل جندي وضابط ما يتيح له شراء ستة أفدنة من الأرض. انطلقت الأخيلة بلا حد: السماء الصافية، البخور ذو الأريج العبق، الراقصات الشرقيات، والجواري، والغموض، والسحر، والمتعة بلا انتهاء.

وقَّع القائد العام منشورًا يُطمئن فيه أهل المدينة بأنه قدم لمحاربة المماليك: «بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه. من طرف الشعب الفرنسي المبني على أساس الحرية والتسوية، الصاري عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونابرت، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق أبناء الملة الفرنسية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي؛ فحضرَت الآن ساعة عقوبتهم. وا حسرتاه. من مدة عصور طويلة

هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا والكردستان يفسدون في الإقليم الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها. إن رب العالمين القادر على كل شيء قد حتَّم عليَّ انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون، قد يقولون لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح، فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه، وأحترم نبيه والقرآن العظيم. أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنسيين هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحثُّ النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا، وطردوا منها الكواللرية، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنسيين كل وقت من الأوقات، كانوا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه.»

قال نابليون لهنري برتران؛ مرافقه وصديقه وموضع سره: أعرف ما تريد أن تقوله؛ هذا المنشور قطعة من الدجل.

وابتسمت عيناه الواسعتان: لكن، ألا توافقني على أنه دجل مقنع؟

وأشاح بيده في عدم اكتراث: على المرء أن يصطنع الدجل — أحيانًا — ليحقق ما يستعصي عليه من الأمنيات!

وهز رأسه مؤمِّنًا: المرء في هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقًا للناس، وأن يبذل وعودًا كثيرة، ولا يفي بشيء منها!

اختلط في ذهنه — بعد أن وقَّع البيان — ما قرأه، أو استمع إليه، عن مصر: الأهرامات، المسلات، أطلال المعابد الكريمة، آثار البطالمة والرومان، أسر لويس التاسع، البنايات العربية، سحر الشرق، وغموضه، وأسراره …

سبقت أحلامه الشخصية قواته المتجهة إلى القاهرة، تريد ما بحوزة المماليك من أسلحة وكنوز، تعين الحملة على مغالبة ظروفها القاسية. قطع الجنود الصحراء. عانوا الجفاف، وحرارة الجو، وارتداء الزي العسكري الشتوي، وعانوا مطاردة البدو واعتداءاتهم.

هنري برتران مرافقُه منذ كان نقيبًا في سلاح الهندسة، وصديقه المقرب، وموضع سره. سألَه: ما الفترة التي تتوقع أن تقضيها في مصر؟

قال بونابرت: بضعة شهور أو ست سنوات، الأمر كله يتوقف على تطور الأحداث، سأحاول الإفادة منها، كما أحاول الإفادة من وجودنا في مصر، ومن العلماء والفنيين الذين أتوقع أن يضيفوا إلى الحلم.

وعدَ جنوده بالغنائم والأسلاب والمكافآت المادية، وإن لم يخبرهم بالمكان الذي يتجهون إليه. أربعون ضابطًا فقط هم الذين كانوا يعرفون إلى أين تمضي الحملة. شدد عليهم، فلا يبلغون الجنود بالجهة التي تقصدها الحملة. ربما حكم العالم من الإسكندرية، وليس من باريس ولا روما ولا لندن ولا الآستانة، ومن يد مصر لا بد أن تصل المدنية إلى أعماق القارة الإفريقية. في باله موقع مصر، وما تحمله أرضها من ثروات. ثمة الكثير يمكن عمله في هذا البلد. ربما لا يعينه الوقت، ولا عودته المحتملة إلى فرنسا، على إنهاء كل شيء، لكن الانطلاق يمضي إلى آفاق بلا نهاية. وضع نظام تعليمي جديد، تعويد أعيان مصر على أفكار المجالس النيابية والحكم، تحسين وسائل الزراعة، استنبات محاصيل لم يسبق زراعتها، تكاثر مشروعات الري من السدود والقناطر والترع والقنوات، التحكم بفيضان النيل فلا تُهدر مياهه. ألف بوابة تضبط الفيضان وتحسن توزيع المياه، المياه المهدرة في البحر تتحول إلى منخفضات الصحراء، ربط البحرين المتوسط والأحمر، الوقاية من الأوبئة والأمراض المتوطنة، قدوم آلاف الوافدين من فرنسا وإيطاليا واليونان وبلاد الشام وداخل إفريقية. يتضاعف سكان البلاد أربع مرات، تعتدل الكفة المقابلة لكفة أهل القاهرة والفلاحين والمماليك.

فصل

وافق المقاتلون من أهل الإسكندرية — مرغمين — على أن يسلم السيد محمد كريم — حاكم المدينة — قلاعها وأسوارها ومرافئها.

نادى الفرنسيون — عند استقرار الأمور — بالأمان، ورفع أعلامهم على بنايات المدينة، وطالبوا الأعيان والوجهاء وأصحاب العمامة بجمع السلاح، ووضع شعار الفرنسيين على صدورهم، وألَّف بونابرت مجلسًا لحكم المدينة.

قال بونابرت للسيد محمد كريم: لقد أخذتك والسلاح في يدك. وكان لي أن أعاملك معاملة الأسير، لكنك استبسلت في الدفاع والشجاعة متلازمة مع الشرف. لذلك أعيد إليك سلاحك، وآمل أن تبدي للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة.

وصلت أنباء ما حدث إلى القاهرة. أبلغ بها ثلاثة عشر رسولًا أوفدهم محمد كريم إلى مراد بك.

عقد شيخ البلد إبراهيم بك اجتماعًا في قصر العيني، حضره الباشا أبو بكر والي مصر، والأمراء الموجودون في القاهرة، والقاضي، والمشايخ: عبد الله الشرقاوي، وخليل

البكري، ومحمد المهدي، وسليمان الفيومي، ومصطفى الصاوي، وأحمد العريشي ومحمد الأمير ونقيب الأشراف عمر مكرم، وشيخ السادات، وعدد من صغار العلماء.

تحدثوا في أمر الواقعة الفاجعة.

قال مراد بك: لم يحضر الفرنجة إلى هذه البلاد إلا بإذن من الدولة العلية.

وأشار بإصبعه إلى الباشا: لا بد أنك تعلم بحقيقة الأمر.

قال الباشا: لا يصح أن تخاطبني بهذه اللهجة، ولا أن توجه هذا الاتهام. الدولة العلية لن توافق على أي اعتداء ضد بلاد الإسلام.

اتجه شيخ السادات بنظرِه ناحية أمراء المماليك: إن كل هذا من سوء أفعالكم وظلمكم، وآخر أمرنا معكم أنكم ملكتمونا للإفرنج.

وأومأ إلى مراد بك بقوله: وخصوصًا بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجر المصريين وأخذ بضائعهم.

كتم مراد بك الغضب في نفسه. الموقف لا يحتمل حتى مجرد إبداء الغضب، وما يترتب على الفعل من ردود أفعال.

قال مراد بك: سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنابك خيلي.

قال الباشا: دعكم من توجيه الاتهامات، وانصرفوا إلى أخذ العُدة تحسبًا للخطر الماثل.

فصل

هل يكفِّر الأمراء عما عاناه أبناء البلاد على أيديهم من ألوان العسف والظلم؟

أَلَّف الأميران إبراهيم بك ومراد بك جيشَين. قاد أحدهما إبراهيم بك ناحية شرق النيل عند بولاق، ومضى الآخر بقيادة مراد بك ناحية الغرب، لصدِّ الجيش الغازي قبل أن يبلغ القاهرة. أبلغه مماليكه أن قوات الفرنسيين يتألف معظمها من المشاة. لم يكن زيُّهم يناسب الجو الحار. البذلة العسكرية من نسيج دقيق الخيوط وجلد البقر، ويحيط بسيقانهم حذاء برقبة عالية. لم يعتادوا على حرب الصحراء، يعانون صعوبة السير فوق الرمال، على ظهورهم عتاد يهد الحيل. اقتصر طعامهم — عبر الصحراء والقرى — على البطيخ، يروون به ظمأهم، وإن ظلوا في حاجة إلى طعام حقيقي، يعينهم على المواصلة. سقط بعضهم صرعى في الطريق، وانتحر البعض بإطلاق الرصاص على أنفسهم، أو ارتموا في النيل.

أهمل مراد اقتراح التسوية الذي نقله إليه روزيتي. يحصل على مصر العليا من جرجا إلى الشلال الأول، شريطة أن يعترف بالتبعية للفرنسيين، ودفع إتاوة لهم. وجد في مجرد عرض الاقتراح ما يشي بضعف الفرنسيين.

رفض نابليون الزحف على القاهرة على امتداد فرع دمياط. قدَّر احتمال عودة القائد الإنجليزي نيلسون، فيضطر إلى الارتداد لفرع رشيد. فضَّل اجتياز طريق الصحراء عبر دمنهور، لتجنب دفاعات المماليك، ولتقليل مسافة الطريق.

أهمل القائد العام ما نقله إليه الأرصاد من حصول جنود الحملة على طعامهم بالسطو والنهب والعنف، واقتتال الجنود على الماء. يدرك أن غالبية جنود الحملة لم ينضموا إليها إلا لضمان الوجبة التالية. آخر رواتبهم تسلموه منذ فترة بعيدة، وثيابهم رثة. تحوَّلت أعداد منهم إلى النهب والسلب في القرى لإسكات صراخ بطونهم. أبلغه الأرصاد بما كتبه الملازم نورمان إلى أسرته «العطش وحده هو الذي دفع جنودنا للاستيلاء على الإسكندرية. كنا أمام خيارين: العثور على الماء، أو الموت.» وقال الملازم فرتري: كان يكفي أن يزود كل جندي بزمزمية صغيرة يحمل فيها الماء، لكن القائد الأعلى نسي هذا الأمر، وسيطر الارتجال على كل شيء. القائد الأعلى هو من يجب أن نلومه. أهمل ضيق الضباط باقتصار الطعام على البقسماط ولحم الجمال وحفنة الأرز. أهمل حتى اكتفاء كل جندي بثلاث قطع من البقسماط. يدرك الظروف التي جاءوا بها. تواصلت حياتهم بالمعاناة نفسها. قدِمت الحملة بنية الحصول على احتياجاتها من البلد الذي تهبط فيه. لما عاب الضابط فوجاني على جنوده طعامهم المسروق، دافع الجنود — بجرأة لم يتوقعها — عن نهر العسل والنبيذ الذي بدا سرابًا في صحراء مجدبة. آلمته حكايات الجنود الذين ألقَوا بستراتهم وقمصانهم. لم يعودوا يتحملون ارتداءها، حتى الجرايات ألقوا بها. ومن أسقطهم الجوع والعطش وضربة الشمس، ومن دفعهم اليأس إلى قتل أنفسهم. أطلقوا الرصاص على رءوسهم، وألقى عدد من الجنود بأنفسهم في النيل، ووجد قائد المدفعية الجنرال ميرو ميتًا في الصحراء. كانت الرصاصة قد اخترقت رأسه، ومسدسه في يده، وجنديين تعانقا، وألقيا بنفسيهما في النيل. أعلن بعض الضباط السخط، ورفض الفهم لبواعث قدومهم إلى مصر.

لم يكن ذلك ما يتوقعه. استعاد قوله حين لمح أشرعة إنجليزية في مدى الأفق: أيها الحظ، أتتخلى عني؟ أمهلني خمسة أيام فقط! لم يدرِ ما إذا كان يعني ما يقوله للجنود، أم أنه لم يكن يقصد سوى حثهم على التجلُّد: اصبروا بضعة أيام أخرى، ثم تجدون — في عاصمة مصر — وفرة في كل شيء؛ الخبز الأبيض واللحم الطيب والنبيذ الفاخر والسكر والقهوة التركي.

التقت قوات الفرنسيين وقوات المماليك في شبراخيت، في الرابع عشر من يوليو. تغلبت على ما عداها — حتى على رغبة الفرنسيين في الانتصار — رغبة الاستحواذ على ما بأيدي فرسان المماليك من الثياب الزاهية، والعمائم ذات الريش، والخوذات المذهَّبة، والسيوف، والرماح، والحراب، والبنادق، والبلط، والخناجر، بالإضافة إلى الطبنجات الثلاث المتدلية من جانب كل فارس. غنائم، لو أنهم فازوا بها ربما تغيرت حياتهم.

قال فرنري: أصبحت أقدامنا المتعبة مشققة كالأرض التي ندوس عليها!

لم تكن الأيام الأربعة التالية لمعركة شبراخيت أقل قسوة. مات بعض الجنود من شدة الحر، واعترضت قنوات الري الجافة طريق عربات المدافع، وانهمك جنود سلاح المهندسين في تسوية ضفاف الترع لإتاحة المرور من فوقها، وأُذِن الضباط والجنود بالاستيلاء على كل ما يصادفهم من مؤن، حتى لو دمرت القرى التي تقاوم عن آخرها. وأُحرقت قرية على الطريق بالفعل، بعد أن سُلب كل ما فيها، وذبح ٩٠٠ ما بين رجل وامرأة وطفل.

فصل

حلت الهزيمة بالأمراء، وفروا عائدين إلى القاهرة.

لاحقَ اليقين مراد بك أنه يواجه ما لم يعهده من قبل، وأنه لن يفلح — كما ادعى — في تحطيم العدو تحت سنابك خيله. فضَّل الفرار، والتخلي عن موافقته لنابليون — بواسطة روزيتي — أن يضع نفسه ومماليكه في خدمة الفرنسيين، لقاء التنازل له عن ممتلكاته في مدن البلاد وقراها.

جاءت الأنباء بأن دولة الأمراء الظالمة لم تستطع الصمود أمام غزو الفرنجة. لم يستطع جنود الأمراء أن يصمدوا، ولا حاولوا حماية المدينة من الجيش الأجنبي. ساد القلق حياة المصريين. أغلِقت أبواب البيوت على سكانها، وأغلَق الكثير من التجار وأرباب الحرف محالَّهم، ولجئُوا إلى القرى. خلت الطرق إلا لضرورة السير، وتمطى الخوف. نقل الأمراء ما بحوزتهم من تحف ومنقولات ثمينة من بيوتهم وقصورهم إلى بيوت صغيرة بعيدة، في أماكن بعيدة، فلا تصل إليها الأيدي، وإن تسللت أعداد من أهل القاهرة إلى قصور مراد وإبراهيم. سلبوا ما فيها، وما في قصور الأمراء، ثم أحرقوها فدُمرت تمامًا.

لإدخال الطمأنينة في قلوب أهل البلاد. أمر والي مصر وشيخ البلد والأغا بفتح الأسواق، وتعليق القناديل على الدور والدكاكين.

فصل

استولى جيش الفرنسيين على فوة والرحمانية في ٢٨ المحرم سنة ١٢١٣هـ. ثم بدأ زحفه لملاقاة مراد بك. انجلت المناوشات بين طلائع الجيش الفرنساوي وقوات المماليك، عن فرار القوات المدافعة، مدفوعة بالخوف والفزع. ولَّوا الأدبار، ومضَوا في موازاة ضفة النيل، تاركين أسلحتهم ومدافعهم في أرض المعركة. أحرق الراهب الفرنسي سيكار كومات من المخطوطات القديمة المودعة في خزانة كبيرة برودان. قال إنها كتب سحر. تراجع مراد بك — بجنده المهزومين — إلى إمبابة، على الجانب الغربي من النيل، بمحاذاة قصبة بولاق، وبدأ في عمل متراس من ساحل النيل إلى قرية بشتيل. ثم شرع الجند في حفر خندق.

فصل

اشتبكت طلائع قوات الفرنسيين مع قوات مراد بك بالقرب من قرية بشتيل. زاد الفرنسيون من شدة نيرانهم؛ فلم يتيحوا للمماليك تدبر استخلاص العبرة، وتنظيم صفوفهم. دار القتال كأشرس ما يكون. اختلطت أصوات المدافع والرصاص والصيحات والصراخ والحشرجات. أحاط جند الفرنسيين بعساكر المماليك من كل ناحية. حاول المماليك — بتأثير الارتباك — أن يطلقوا مدافعهم وبنادقهم، فأخطأت التمييز بين قوات المسلمين وقوات الكفار. ماتت أعداد من جنود مراد بك، وألقت أعداد أخرى بنفسها في النيل، وتبع من تبقى مراد بك في تقهقره نحو الجيزة.

دانت الضفة الغربية لنهر النيل لسيطرة الفرنسيين، فوجهوا نيران مدافعهم إلى البر الشرقي. كان جنود والي مصر وإبراهيم بك قد تابعوا ما حل بجند مراد بك من هزيمة قاسية. سرت فيهم روح التشرذم والفرقة، وعاد غالبية المُدافعين إلى القاهرة، يعروهم الفزع والحيرة.

فصل

خرج الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات، واختار بعض العلماء زاوية علي بك ببولاق، يتلون القرآن، ويقرءون البخاري والأذكار، ويدعون إلى الله — في جنباتها — بنصرة الإسلام، ودحر أعدائه.

وقف المماليك، أو امتطوا جيادهم، في السابع عشر من يوليو ١٧٩٨م على الضفة المقابلة للنيل في إمبابة. يرتدي كل واحد خوذة حديدية، ودرعًا، وثوبًا حريريًّا زاهي

الألوان، ذي خيوط مذهَّبة، وعمامة هائلة، وتسلح بمسدسَين وغدارة لامعة، والبنادق والبلط والرماح والصوالج والحراب والخناجر، والسيوف المعقوفة، المرصعة بالأحجار الكريمة، تضوي بالألق المنعكس من أشعة الشمس. وراية الحرب رفعت فوق ذيول الجياد، والطبول والأبواق تمهد للمعركة المتوقعة. إلى اليمين الأهرامات الثلاثة وأبو الهول، وإلى اليسار — في الناحية المقابلة من النيل — تعلو المآذن والقباب وأسوار قلعة الجبل.

لم يكن إبراهيم بك على ثقة بالنصر. أنطقه الخوف في نفسه بما لا يصدر عن رجل: إن هؤلاء الكفار القادمين لقتالكم، لهم أظافر طولها قدم، وأفواه ضخمة، وعيون ضارية. إنهم متوحشون يسكن الشيطان أجسادهم، وهم يمضون إلى المعركة تربطهم السلاسل بعضهم ببعض.

ظل إبراهيم بك على الضفة الشرقية للنهر، مراكبه محمَّلة بالصناديق المملوءة بالذهب والأمتعة. في نيته الفرار إلى الشام، مع أول بادرة هزيمة.

فصل

ضيق الفرنسيون الحصار على قوات المماليك والفلاحين. عرضوا عليهم الاستسلام كأسرى، لكنهم فضلوا القتال حتى الموت. وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة، جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمع بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين؛ فليس من رأى كمن سمع.

لاحق جنود الجنرال ديزيه القوات المنسحبة. واجهوا القوات الخلفية لمراد بك، بالقرب من جيزة مصر.

«من نجا برأسه فقد ربح.»

مقولة، حاول أن يفرَّ شيخ البلد والوالي — في ظلها عن طريق الصالحية — من العادلية إلى غزة. صار الفالح هو الذي يسبق رفيقه. ولَّوا الأدبار كأمواج في مد وجزر متلاحقين. أما مراد بك، فقد مضى بصحبة زوجته وجنوده المهزومين ناحية الصعيد. بلغ أسيوط مع مماليكه. جمَّد الملاحة في النهر، وهدد تموين القاهرة. وصل إبراهيم بك إلى بلبيس ومعه حريمه وكنوزه. لم يَعُد من ثمانية عشر ألفًا، هم مماليك مراد بك، سوى ثلاثة آلاف فارس، تبعوه في اتجاه الجنوب، خلَّفوا وراءهم أربعمائة جمل، والكثير من الجياد والعَتاد والذخيرة والنفائس والطعام — المطمح الأهم للجنود الفرنسيين! — والمدافع التي لم تنطلق منها قذيفة واحدة. انشغل جنود الفرنسيين بانتشال جثث قتلى المماليك، وسلب

السيوف والثياب، وما بها من حلى وأحجار كريمة وقطع ذهبية ونفائس، ثم معاودة إلقاء الجثث — عارية — في النيل.

تشوش نظام جند المماليك. اختلط حابلهم بنابلهم، وانشغل كل واحد بتخليص نفسه، لا يشغله حتى القائد الذي يصدر الأوامر، أو الأمير ولي النعم. استدعت التصورات ما رُوي عن يوم نفخ الصور. قال الجنرال بارتييه: لم تُثبت الخطط العسكرية الأوروبية قط، مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة.

لم يجد الفرنسيون عناءً في الاستيلاء على الجيزة وبولاق. شرعوا في التدمير والنهب والسلب والإحراق. تعالى الصراخ والبكاء من مواضع كثيرة.

ترامت رائحة الفرنسيين إلى ناس القاهرة. تعالى النداء من فوق المآذن قبل صلاة الفجر: أيها الناس، استيقظوا، سنقاتل الفرنسيين. بدا الخطر في انعطافة الطريق، أو في مدى البصر. اختلقت الشائعات ما لم يحدث، ولا يمكن تصديقه. قيل إن الغزاة أعدُّوا للمدينة من أسباب الحرق والتدمير ما يُلغيها من الوجود.

ضجَّ الناس بالصياح والصراخ والعويل. احتشدت طوائف العامة. حضر الوالي وشيخ السادات ونقيب الأشراف وشيخ البلد إبراهيم بك وأتباعه من أمراء المماليك والكشاف وأرباب العمامة والوجهاء وقادة الفرق العسكرية والعامة إلى قصبة بولاق، للتشاور في صد الفرنسيين. استقر الرأي على أن ينقسموا في دفاعاتهم ما بين الضفة الشرقية للنيل، والضفة الغربية التي يتولى مراد بك أمر قيادة دفاعاتها. عمل مراد بك المتاريس من بولاق إلى شبرا، ونصب المدافع في المواضع المؤثرة، واستعان بعربان الشرقية والغربية.

نودي بالنفير العام …

خرج أهل القاهرة من طائفة العسكر والمدنيين — فيما عدا العجائز والنساء والأطفال — إلى المتاريس للجهاد في سبيل الله، والمدافعة عن البلاد ضد هجمات الغزاة. لم يبخل أحد بشيء يملكه. تقاطرت الطرق الصوفية، وارتفعت أصوات الطبول والدفوف، وعلت الأعلام والبيارق والشارات فوق الرءوس، والتفَّ المشايخ والمجاورون في حلقات، داخل الجامع الأزهر، ومعهم مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرها من الطوائف وأرباب الأشاير وأطفال المكاتب، يذكرون الاسم اللطيف وغيره من أسماء الله الحسنى، ويقرءون البخاري، والكثير من التلاوات والأدعية والابتهالات الدينية، وحمل الزعر والحرافيش والجعيدية النبابيت والعصي، يرافقهم التهليل والتكبير، وأصوات الطبول والمزامير.

خلت الشوارع من المارة. أمر قائد الشرطة — لتجنب أعمال السلب والنهب، ولرفع الخوف عن أهل القاهرة — بفتح المقاهي نهارًا وليلًا، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين. ازدحمت الجوامع والمساجد والزوايا بالعلماء وأتباع الطرق الصوفية وأطفال المكاتب وعامة الناس. يتلون القرآن، ويقرءون البخاري، ويرددون الأدعية والابتهالات.

تكرر النداء في الأيام التالية. بذل أبناء القاهرة وسعهم، وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وخزائنهم من أموال. لم يبخَل أحد بما يملكه. أغلقت الأسواق والدكاكين، واتجه المئات إلى بر بولاق. رفعت الأعلام في أيدي المتصوفة والحرافيش، وتعالت الطبول والزمور والطاسات، تختلط بالأذكار والنداءات والصيحات. صعد نقيب الأشراف السيد عمر مكرم إلى القلعة. أنزل منها البيرق النبوي. نشره بين يديه من القلعة إلى بولاق، وسط زحمة خانقة، ألوف من أهل القاهرة، يحملون العصي والشوم والنبابيت، تقاطروا من سوق السلاح، وسوق الرميلة، ترافقهم التهليلات والتكبيرات، وإيقاعات الطبول والزمور. لم يَعُد في القاهرة سوى من لا طاقة له على حمل السلاح من الشيوخ والنساء والأطفال.

راع الناس ما لجأ إليه الأمراء من نقل أموالهم وأمتعتهم ونفائسهم إلى مناطق بعيدة. ركب القادرون دوابهم، وحمَّلوها ما يمكن أن تحمله من المتاع، وتضاعفت أسعار الدواب في سوق الرميلة. حتى الحيوانات الجريحة والمريضة وجدت من يدفع فيها الأثمان الباهظة. وثمة من جعل رأسه، أو كتفيه، وظهره، ركوبة لأبنائه، يفرُّ بهم خارج القاهرة، وأخفى النساء حليهن ومصاغهن، بعيدًا عن خزائن البيوت، ووافق الكثير من الأسر الكريمة على اقتران فتياتها بمن رفضنه من قبل، كي يصحبن أزواجهن إلى مناطق آمنة. تعددت نواحي اللجوء ما بين قرى الصعيد وقرى الشرقية، ومضت أعداد إلى مدينة الخانكة؛ حيث لاذ بها والي مصر وشيخ البلد. لكن لصوص العربان خرجوا على جميع المهاجرين في المطرية، في طريقهم إلى الخانكة. أعملوا فيهم القتل والسلب، وهتكوا أعراض النساء. عاد من فازوا بالنجاة إلى القاهرة، وهم لا يسترون أبدانهم، ولا يملكون ما يقيم الأوَد.

داخل أهل القاهرة من تلك التصرفات خوف. خرج الناس إلى الشرق، أو إلى جهة الصعيد. توزعت الطرق، واختلطت، وتشابكت. أخذ كل إنسان ما يستطيع حمله من مال ومتاع، لا يدري أيَّ الطرق يقصد. لاذ بالأزهر الشريف مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية، وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير، يقرءون البخاري والأذكار، ويتلون الأدعية والابتهالات، والاستغاثة بخفي الألطاف لينجي الناس مما يخيف.

معظم البنايات أغلقت أبوابها ونوافذها بالمزاليج، تشي بأن سكانها تركوها لغياب قد يطول. أغلق التجار حوانيتهم. خلت الأسواق من المارة. توقفت عمليات البيع والشراء. زادت

الأسعار بما لا يقوى عليه غير القادرين. تفشَّت مظاهر الفاقة والجوع وعدم الحصول على ما يقيم الأوَد. ترصد عربان البادية واللصوص الفرصة. تسللوا إلى بيوت الأهالي، واقتحموها. أخذوا ما فيها من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما يصعب حصره، وأقدموا على أفعال شنيعة من القتل والنهب والتدمير، وفجروا بمن عجز عن الفرار من حرائر الأُسَر. فتحت أبواب الدور عن آخرها، وتناثر الكثير من البضائع والأمتعة في الطرقات. لم يَعُد في القاهرة — بعد أن هجرها معظم بنيها — سوى النساء والأطفال والعجائز الذين لا يقوون على الحركة، يمتثلون للقضاء، ويتوقعون المكروه.

فصل

داهمت قوات الفرنسيين بيت السيدة نفيسة خاتون بنت عبد الله، زوجة مراد بك. كانت — قبل اقترانه بها — أرملة لسيدِه على بك الكبير. تعلمت العربية قراءة وكتابة. عُنيت بالقراءة والاطلاع ومجالسة العلماء من وراء حجاب. احترمها الخواصُّ وأمراء المماليك. اجتذبت قلوب الناس بما عُرف عنها من البر والإحسان ورفع الظلم وحماية الغلابة والمنكسرين. ساعدت مراد بجزء مما ورثته عن زوجها، وأضفت على مكانته هيبة. بحث الفرنسيون عن أسلحة ووثائق سرية وأموال. دافع عنها المشايخ وأمير الحج وقاضي القاهرة. فرض الفرنسيون عليها إتاوات قاسية، وغرامات لا سبب لها.

فصل

تبين لأهل القاهرة أنه كان من الأوفق لهم أن يظلوا في مدينتهم. ارتكب البدو من الشرور ما لا يتصور أن الفرنسيين يقدمون عليه. هتكوا الأعراض، وقتلوا الأنفس، وسفكوا الدماء، بلا دافع إلا النيات الشريرة في الأذى والتدمير.

جاءت الأنباء بأن الفرنسيين لم يعبروا إلى الضفة الشرقية للنيل؛ فالفرصة قائمة إذَن لانتزاع السلامة من أيدي الفرنسيين. قرر العلماء والوجهاء — حرصًا على أهل القاهرة — تسليم القاهرة إلى قادة الفرنسيين. حمَّلوا مبعوثَين — أحدهما مغربي — باسم أهل القاهرة إلى القائد العام للفرنسيين في معسكره بالجيزة. لاطفهما بونابرت، وأظهر لهما الود. أعادهما إلى القاهرة برسالة يقول فيها إنه لم يحضر إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنسيين بالذل والاحتقار، وأخذوا مال التجار، ومال السلطان. وطمأن المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية على أرواحهم وممتلكاتهم.

قرأ المشايخ رسالة بونابرت، فاستقرت الطمأنينة في النفوس، وزايلتها الوحشة.

سار إلى الجيزة جماعة من المشايخ، يتقدمهم الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي. استقبلهم القائد العام — في مقره — بالحفاوة والترحيب. ظلوا صامتين أمام القامة القصيرة، والبشرة الشاحبة، والنظرة الهادئة، الباردة، من العينَين الرماديتَين.

ابتدرهم بالقول: من هو الحاكم الحقيقي للبلاد؟ أين هو؟

قال الشيخ مصطفى الصاوي: الحكام ولَّت، والرعية ذلَّت. وقد أتينا من قبل علماء البلد والأعيان نطلب لهم الأمان.

قال القائد العام في صوت أملس: نحن قدَّمنا ضمانات، ولا خصوم لنا سوى المماليك.

ثم وهو يتصنع الود: نحن نؤكد ضمانات الأمن للأشخاص والبيوت والممتلكات، ولا سيما لدين النبي الذي أحبه!

أردف في ودِّه: إنني راض عن مسلككم. أحسنتم عملًا بالامتناع عن الوقوف ضدي. لقد جئت للقضاء على جنس المماليك، ولحماية التجارة وأهل البلد.

سكت كالمتأمل، وأضاف: إنني أريد إعادة مملكة العرب … من يعارضني في ذلك؟

حدس من ارتجاف الشفاه، أنهم يريدون الكلام، فيعجزهم النطق.

اتجه إليهم بنظرة تُومض بما صعب تبينه: لقد دمرتُ المماليك، وقضيتُ على مظالمهم. يبقى أن يدرك شعب مصر ما نريده له من خير. ساعتها لا بد أن يتعلق بنا بإخلاص!

وعلا صوته بلهجة متحمسة: نحن سنعيد زمن مجد الفاطميين!

أردف في حماسته: لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ لماذا تبسط سيطرتها على مصر الخصيبة، وشبه الجزيرة العربية المقدسة، شعوب قدِمت من القوقاز؟ وإذا ما عاد الرسول محمد إلى الأرض: إلى أين سيذهب؟ هل إلى القسطنطينية؟ إنها مدينة دنيوية، بها من الكفار أكثر مما بها من المؤمنين، ووجوده في القسطنطينية يعني أنه يضع نفسه وسط أعدائه. كلا، إنه سيفضل مياه النيل المباركة. وسيأتي للإقامة في الجامع الأزهر، أول الطريق إلى الكعبة.

تهللت وجوه المشايخ: هذا صحيح تمامًا!

واجههم بنظرته الملتمعة: أنتم المشايخ الكبار. لماذا تأخرتم حتى الآن؟

قال الشيخ مصطفى الصاوي: لسنا المشايخ الكبار. كما قلنا فإن المشايخ الكبار خافوا وهربوا.

قال بونابرت: ما الذي أخافهم؟ من الذي أخافهم؟

وأشار إلى ضباطه: أكتبوا لهم بالحضور الآن.

أمر، فأُرسلت كتب بالأمان إلى كبار المشايخ والعلماء والأعيان، ممن فرُّوا خارج القاهرة. آثروا السلامة، وطلبوا العافية، وآمنوا أنه إذا كان لكل أجل كتاب فإن المرء يجب ألا يلقى بنفسه إلى التهلكة.

عاد — بالطمأنينة — كل من وصلت إليه كتب الأمان: شيخ السادات والشيخ عبد الله الشرقاوي ومعظم الأهالي. صدعوا بأمر القائد العام، وأبرزوا الطاعة والانقياد. عادوا إلى الصلاة في المساجد، وفتحت الدكاكين أبوابها، وذهب الحرفيون والتجار إلى أعمالهم، وتلقَّى التلاميذ الدروس في الكتاتيب. عمر أفندي مكرم نقيب الأشراف والروزنامجي أفندي — وحدهما — لم يعودا إلى المحروسة. لحِقا بشيخ البلد في بلبيس، يرافقه أعداد من أبناء الناس والعامة.

أزمع عمر مكرم ألا يعود إلى القاهرة إلا على جهاد، أو يعِد المستقبل بخير تبهت ملامحه. لم ينظر إلى المعاناة التي تتهدده، ولا إلى النفي الذي سيعيش في إساره. ما شغله خلاصَ مصر من المماليك، وباشا العثمانيين، والفرنسيين الغزاة.

فصل

عبرت أعداد من الفرنسيين النيل — في اليوم التالي للقاء بونابرت والعلماء — إلى الضفة الشرقية. ظلت أعداد أخرى على الضفة الغربية من النهر. تابع أهل القاهرة — بأعين الحزن والخوف والفضول — سير موكب القائد العام من الجيزة إلى قصر محمد بك الألفي وسط ساحة الأزبكية؛ حيث نزل فيه. لحق الألفي بسيده مراد بك إلى الجنوب.

كان القصر حديث البناء. أنفق عليه الألفي أموالًا طائلة. من حوله حديقة واسعة، تظللها أشجار السرو والبرتقال، وتتناثر فيها النافورات المنبثقة في تكوينات، السلالم رخامية، متداخلة بالمرمر والجرانيت الأسواني، والأرضيات من الفسيفساء، والأسقف والجدران مزخرفة بالنقوش الإسلامية. ونافورة رائعة تتوسط قاعة الاستقبال، وفي القاعات والحجرات ينتظم فاخر الأثاث والرياش. والحمامات متناثرة في كل طابق. كان الخلاء الترابي يمتد أمام القصر، وإلى يسار الواجهة شجرة جميز هائلة، لم يمنع القائد العام عامة المصريين مما أَلِفوه من الجلوس في ظلها.

أقام قادة الفرنسيين فيما أعجبهم من دور الوجهاء والأعيان. أما الجنود، فقد ظل غالبيتهم في معسكراتهم بالجيزة. لم يحاولوا العبور إلى الضفة الأخرى للنهر، حتى لا يثيروا الفزع في نفوس الأهالي.

فصل

هل المصادفة هي التي حددت موعد لقاء القائد العام والعلماء، أو أن بونابرت اختار يوم إعدام السيد محمد كريم للقائه بهم؟

أمر القائد العام بإبقاء السيد محمد كريم محافظًا للمدينة. حين عرف أن الرجل على صلة بالأهالي الذين يقاومون الفرنسيين، اتهمه بالخيانة، وإن تردد في إدانته بما يعرضه للعقاب. حدثه أعوانه عن حب الإسكندرية للرجل، وشهرته التي امتدت إلى القاهرة والمدن الأخرى. ثم تحدثت تبليغات الأرصاد عما يمتلكه الرجل من أموال هائلة لا يعرف موضعها سواه، فقرن العفو عنه بفدية تنجيه من الإعدام. طالبه بأن يدفع غرامة ثلاثمائة ألف فرنك، يسددها في اثنتَي عشرة ساعة، أو تفصل رأسه.

لم يكن في حوزة المحافظ قيمة الغرامة، ولا أقل منها. تعددت التماساته إلى الأعيان والوجهاء: اشتروني يا مسلمين! لم يبذل أحد من ماله لكي ينقذه، أو أنه لم يكن بحوزتهم ما يفتدونه به، فتركوه لمصيره. شفع فيه أصحاب العمامة، فلم تُقبل لهم شفاعة. أعدم في الخامس من سبتمبر ١٧٩٨م، واحتزت رأسه. طاف جنود الفرنسيين بها شوارع المدينة ينادون: هذا جزاء الخائن!

استقبل بونابرت — في اليوم نفسه، ثاني أيام إقامته بقصر محمد الألفي — حمَلة العمامة والأقلام والوجهاء. كان يرتدي معطفًا أسود، أضاف إلى نحوله.

لم يدعُهم إلى الجلوس. ظلوا وقوفًا. واجههم بنظرة تفرض المهابة، وملامح تخلو من الود، وتملي الإرادة، وتملي الملاحظات والأسئلة.

قال في صوت باهت: لقد فضلتكم أيها العلماء ورجال الشرع؛ لأنكم قادة طبيعيون. أنتم أيضًا حمَلة القرآن الكريم ومفسروه، وأصحاب أخلاق حميدة، ومحبون للعدالة، ولا اتجاهات عندكم لقيادة الحركات المسلحة.

وافتعل ابتسامة: لقد أصلحنا الأمور بعد فسادها، وفرضنا النظام في كل الحارات.

ثم وهو يسند يده على خصره: إنما جئنا إلى مصر لتحريرها وإعادة الازدهار إليها.

قال الشيخ البكري: لقد جئتم لتخليصنا بمشيئة الله الرحمن الرحيم.

زال ما بالنفوس من قلق ورهبة، عندما بالغ القائد العام في إكرام المشايخ، والحدب بهم، وفرد لهم الأسمطة، وهيأ لهم أفخر الموائد، وخلع عليهم ما ألهج ألسنتهم بالشكر والثناء.

جاء اختياره للعلماء لأنهم أغنياء، ولا يعرفون ركوب الخيل، ولا المناورة العسكرية، ولا يجيدون القيام بثورة مسلحة.

أعلن القائد العام عن تكوين ديوان لتدارس أمور البلاد، وعرض ما يجب عرضه على القائد العام. قال: يجب ألا تختاروا لمعاونتكم أي كبير من المماليك!

قال الشيخ البكري: سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس المملوك، ولا يحكمهم سواهم.

فكر بونابرت قليلًا، ثم قال: ماذا ترون؟

قال الشيخ عبد الله الشرقاوي: لا بأس من اختيار المماليك الثلاثة الذين يتوقف على وظائفهم حفظ النظام؛ الوالي علي أغا الشعراوي، والمحتسب حسن أغا محرم، وأغا الإنكشارية محمد أغا المسلماني.

– لا أعرفهم. لكنني أثق في سلامة اختياركم.

أصدر القائد العام أمره بإنشاء الديوان: عشرة من العلماء والقاضي وكتخدا والي مصر مصطفى أغا. وعيَّن أغا مستحفظان، ووالي الشرطة، وأمين الاحتساب، وكتخداوية بونابرت، وكتخدا مستحفظان. جعل من دار قائد أغا في الأزبكية مقرًّا له. حدد نشاطه بصفة الاستشارة. يقوم بالوساطة بين المصريين والسلطات الفرنسية، يبحث ما يفرضه القائد العام من ضرائب على التجار وأصحاب الأراضي والعقارات، يرفع التماسات المماليك لإعادة بعض ما صادره الفرنسيون من ممتلكاتهم وأموالهم.

تأتي مواكب الأعضاء إلى مقر الديوان، في ساحة الأزبكية. يركبون البغال المسرَّجة، مِن حولهم الخدم والقواسة. خصص القائد العام حرسًا من الفرنسيين للترحيب بهم، وإكرام وفادتهم. يرافقونهم إلى القاعات؛ فيستقبلهم المساعدون بالحفاوة نفسها. تُقدم لهم المشروبات الباردة والقهوة. يدخل القائد العام. يختار الجلوس على أريكة تتوسط المكان، وتبدأ المناقشات.

نزع القائد العام نقابة الأشراف من السيد عمر مكرم. قلَّدها إلى خليل البكري. وافق على رواية البكري بأن النقابة كانت لآل البكري، وأنها اغتُصبت منه. ألبس الشيخ فروة، وتقلَّد نقابة الأشراف. هو وحده الذي أخذ السجل بالمنحدرين من نسل الرسول. صار من حقه التنعم بوقفها وعائداتها. نودي في القاهرة بأن كل من له دعوى على شريف، فليرفعها إلى النقيب.

نهض بونابرت من مجلسه. رفع بيده طيلسانات ملونة. أراد وضع الطيلسان المثلث الألوان على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوي. تراجع الشيخ، فسقط الطيلسان على الأرض. لاحظ بونابرت تغير سحنة الشيخ. قال للترجمان كلمات بلغة بلاده، وأومأ برأسه.

قال الترجمان: يا مشايخ، أنتم صرتم أحباب القائد العام، وهو قصده تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإنكم إذا تميزتم بذلك، عظمتكم الناس والعساكر، وصار لكم منزلة في قلوبهم.

استطرد الشيخ الشرقاوي: لكن قدرنا ينحط عند الله، وعند إخواننا من المسلمين!

أخلى القائد العام وجهه للغضب، وتحدث إلى الترجمان — بلغة الفرنسيين — ما نقله الترجمان للمشايخ: هذا الشيخ لا يصلح للرئاسة، ونحو ذلك.

لاطف بقية المشايخ القائد العام واستعفوه من تلك الشالات.

قال بونابرت: إن لم يكن هذا، فلازم وضعكم الكوكارد في صدوركم، وهي العلامة التي يقال لها الوردة.

قال الشيخ الشرقاوي: أمهلونا حتى نتروى في ذلك.

نقل المترجم عن القائد العام قوله إنه من الأجدى للعلماء أن يؤلفوا ما ينفع الناس، وليس الاكتفاء بالفرائض الدينية.

أدرك الشيخ أن بونابرت يخفي نزوعه إلى الشر وراء قناع من المودة الظاهرة والابتسام والعبارات اللطيفة. تأمل القبعة العريضة — تبدو غير مناسبة — على رأسه، والحذاء الواسع على القدمَين.

قال نابليون، ليزيل ما ران على الجلسة من توتر: بعد أن دحرنا مقاتلي مراد … ماذا ينتظرنا من معارك؟

قال الشيخ البكري: إن سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس المملوك!

– نحن انتصرنا على المماليك … من بقي لنحاربه؟

– لا يوجد سوى بعض شيوخ الأزهر يقرءون البخاري.

أظهر نابليون القلق: ما البخاري؟ هل هو مدفع بعيد المدى؟ وهل داناته ثقيلة؟ وما المخزون الذي يوجد منه عند المصريين؟

قال البكري: إنه كتاب دين يلجئُون إليه في أوقات الخطر.

ارتسمت الراحة على ملامح بونابرت: على القوات إذَن أن تواصل التقدم!

عبر جنود الفرنسيين في اليوم الثالث إلى القاهرة.

الباب الثاني

فصل

تأمل الشيخ بدر الدين المقدسي أسراب الطير وهي تحلق فوق وعاء الحبوب الذي يعلو مئذنة جامع أحمد بن طولون، فوق جبل يشكر، بالقرب من المقطم. يواظب خدم الجامع على ملئه طيلة أيام السنة. نصح مريديه بعدم التردد على الجامع. مبنًى من الطوب الأحمر. محاط من ثلاث جهات بثلاث زيادات. الصحن الأوسط المكشوف، مربع، تحيط به في جوانبه الأربعة طرقات تمتد فيها صفوف متوازية من الأعمدة، مائة وستون عمودًا، يحيط بها، وبالحوائط، شريط كتابي بالخط الكوفي، طوله كيلومترين، يضم سورتي البقرة وآل عمران. المنبر من خشب الساج والأبنوس، زخارفه نباتية، مورقة، المحراب القديم الأصلي معه خمسة محاريب أخرى. الميضأة قبة كبيرة، محمولة على أربعة عقود، رقبتها محلاة بشريط كتابي من خط النسخ المملوكي.

التشققات — الطولية والعرضية — واضحة في الأعمدة المصفوفة، تهدد الجامع بالانهيار. النشع غطى الجدران بأشكال وتكوينات.

– مسجد النقيب الذي بنيته بالحسينية هو أيضًا من بيوت الله.

من عائلة مقدسية، تنتمي إلى الأشراف. عرف بابن النقيب لأنه كان ابن النقيب السيد علي بن موسى الحسيني المقدسي، أجداده نقباء الأشراف في بيت المقدس. سموه المحدث، والمقدسي.

ارتبط بحي الحسينية، لأنه حي الزعر والحرافيش وعوام الناس. وكان يلقي دروسه في جامع الحسين. جمع حوله الكثير من المصلين والمريدين الذين وفدوا عليه لسماع عظاته بعد صلاة المغرب، وخطبته قبل صلاة الجمعة. تزايد المريدون والأتباع وطالِبو

النصفة والمدد والصلات والعطايا والزكوات. تشرئب أعناقهم، وتتسع عيونهم، وينصتون إلى كلماته بالصمت والاهتمام. يدعوهم إلى رفض مستنكرات الشرع، والاقتصار على ما يقضي به الكتاب الكريم والسنة.

عُرف عنه أنه على علم بفقه الدين، وتفسير القرآن. يدرك باطن العلم وظاهره. لا يتكلم إلا عن قراءة ودراسة وفهم، ولا يرد أحدًا، ويفتح بيته لمن يقصده في حاجة، أو فتوى، أو مظلمة، أو شفاعة. لا يقصر زائريه على خواص، إنما هو يساوي في استقبال الجميع. لا شأن لذلك بمكانة علمية أو اجتماعية. يسير في الشوارع والأسواق. يجلس داخل المساجد والزوايا. يتردد على بيوت كبار التجار والوجهاء. من حوله الأعوان والمريدون وطالِبو الحاجة. يلجأ الناس إليه لقضاء الحاجات، ورفع المظالم، وحل المنازعات، يفزعون إليه في الملمات. ينصر الضعيف على القوي، ويتشفع للأهالي عند رجال الإدارة والمماليك. إذا حاصرته الظروف القاسية، استعان بعدِّية يس، يوالي ترديدها، حتى تنقشع الغمة، ويزول الخطر.

لم يكن يأذن لأحد في مجلسه أن يتكلم بغير أحاديث العلم والعقيدة وفقه الدين وسير الرسول وآل البيت والخلفاء والصحابة والتابعين والسلف الصالح. الصلوات الخمس هي الإيقاع ليومه: الصحو، والخروج إلى الأسواق والعمل، ومجالسة المريدين، والقراءة، والتأمل، والنوم. وبَّخ أحد مريديه لأنه أذاع عنه ارتفاع التكليف. وصل إلى مقام لا يحتاج معه إلى ممارسة شعائر من أي نوع.

اعتبره الناس قطبًا صوفيًّا. له عينان سوداوان حادتان. وجهه مشرب بحمرة. يرتدي عمامة وعباءة شديدة الأناقة، حوافها مذهَّبة، والحزام العريض حول الخصر موشًّى بالذهب، ويركب جوادًا عربيًّا، أضاف إلى سَمته فروسية باهرة.

ازدادت أعداد المريدين — بتوالي الأيام — حتى ضاق بهم مسجد النقيب. قصده الناس من أطراف الأرض، طلبًا لعلمه وبركاته ومدده. قوافل من المشرق والمغرب، فيها رجال ونساء، يحملون الهدايا النفيسة. كان يشكر أصحابها، ويعتذر عن قبولها.

اشتهر بأنه يتجنب موائد الحكام، وأموالهم، ولا يطرق أبوابهم، ولم يكن يتردد في نقد أمراء المماليك وحكام العثمانيين، ولا يخشى غضب الأميرَين مراد وإبراهيم، ولا غضب المماليك. لجأ إليه الناس لإغاثتهم من ظلم الأمراء، وعسف أهل الحكم. أحاط بالأميرَين عصبة للشر، انشغلت بالسلب والنهب والمصادرة، وأهملت مصالح الناس. أجبر الأمراء على أن يسيروا في الناس سيرة حسنة، ويكفُّوا أتباعهم عن مد الأيدي إلى أموال الناس، وممتلكاتهم. صار له هيبة لا تقل عن هيبة الأمراء، ولا عن هيبة الباشا ممثل السلطان.

تحققت له مكانة عظيمة في قلوب الناس. لم يَعُد يتم أمر من أمور الناس، والتعبير عن سخطهم ضد المماليك، ثم الفرنسيين من بعدهم، إلا باطلاعه ومشورته.

شدد المقدسي عليهم، فلا بد أن ينبهوا الناس إلى الكتب التي فرقها الفرنسيون، زعموا فيها أنهم ليسوا نصارى؛ لأنهم يقولون إن الله واحد، وأنهم يعظمون محمدًا، ويحترمون القرآن، ويحبون العثماني، ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة؛ لأنهم نهبوا أموالهم، وأموال تجارتهم، ولا يتعرضون للتجارة في شيء.

تحدث المريدون عن رؤية فرنسيين يدخلون الجامع. يكتبون في أوراق، ويرسمون ما يلاحظونه.

قال مختار الرمادي: حتى نعالهم لم يخلعوها.

في حوالي الخامسة والعشرين. يتنفس العافية. حلق شعر رأسه من الجنبين، وترك ما يشبه الخصلة تتدلى على جبهته. وجهه أسمر، تكسوه ابتسامة طفولية، وعيناه صاحيتان، وأسنانه مفلجة، وتنتهي ذقنه بلحية صغيرة، مدببة. في ظهر يده أثر حرق، أو كي بالنار. يرتدي جلبابًا أزرق بياقة مفتوحة. يبدو الصديري المخطط من فتحة الجلباب. فك الأزرار الكثيرة المتقاربة، ففزت غابة الشعر الكثيف. يضع على كتفيه شالًا مزين الأطراف.

لاحظ حيرة الحرفيين وأبناء الطوائف وعوام الناس. تشتتَت ولاءاتهم وانتماءاتهم إلى أمراء ومشايخ وعلماء ووجهاء وذوي نفوذ. أزمع أن يجمعهم في اتجاه التخلص من الفرنسيين. لا شأن لما يفعلون بشخص، مهما علا مركزه أو رتبته. التخلص من غزوة الفرنسيين، خطوة وحيدة، لا صلة لها بانتماءات تالية. خروج الفرنسيين مسئولية أهل مصر، يسبق ما عداه من انتماءات الدين والجماعة.

قال الشيخ المقدسي: دخولهم بالنعال تدنيس للجامع.

قال المعلم شيحة: لماذا يدخلون الجامع من أصله؟

ثم وهو يغتصب ضحكة: أعلن القائد العام للفرنسيين اعتناقه الإسلام.

قال الشيخ المقدسي: هل احتفظ باسمه المسيحي؟

قال المعلم شيحة: لا ... هو الآن علي بونابرت.

قال الشيخ المقدسي: هل قاد حملة عسكرية إلى مصر ليعلن إسلامه؟!

قال مختار الرمادي: إذَن علينا توقع إمامته للمصلين في الجامع الأزهر.

قال طلبة أبو سليمان الكتبي بالصنادقية: لا تسخر من الرجل فهو — فيما أرى — صادق في إسلامه.

وأردف في نبرة واثقة: عرَفت أن القانون الذي جاء به من بلاده من فقه الإمام مالك.

قال التاجر عفيفي عبد المولى: أصدقك ... رأيته بنفسي في اجتماعه بالمشايخ يكثر من نطق الشهادتين.

كان الرجل يعتز بمكانته بين تجار خان الخليلي من الأتراك والفرس، تقتصر تجارته على البن اليمني.

قال الشيخ المقدسي: المصيبة أننا لم نقلد الفرنسيين إلا في حلق الذقون!

تهيأ المعلم شيحة للقيام من موضعه: ربما لزمت الجامع العتيق في أيامي الأخيرة.

ورفع أعلى صدره: يطير الجامع بمصليه إلى الجنة.

أهمل نظرة الدهشة في عيني الشيخ المقدسي: هذه أمنيتي.

لم يَعُد المعلم شيحة يصبغ فوديه بالحناء. حتى شعر حاجبيه أهمل صبغه. أحاطت بوجهه دائرة من البياض. وكان يرتدي القفطان، يتدلى إلى كاحل القدمين، ويضع فوق رأسه طربوشًا أحمر، أحاطه بطيات من القماش الأبيض، تتحول إلى عمامة، ويدس قدميه في خفٍّ مغربي. حفظ الكثير من الأذكار والأوراد والأقوال الشريفة. تحدد يومه بمواعيد الصلاة. يصحو لصلاة الفجر، وينام عقب صلاة العشاء، ويقسِّم أوقات نهاره بين مواعيد الصلاة في الظهر والعصر والمغرب، ويتحدث عن أمنيته في أن يرحل — على قدميه — إلى الأراضي الحجازية. يؤدي فريضة الحج، ويزور قبر النبي، ومقابر آل البيت والصحابة والتابعين. وكان يتردد على سوق المسكة عقب صلاة الجمعة. يشتري ما يحتاجه البيت من الدجاج والأوز والحمام، ولحم الماعز والضأن.

فصل

تعاظم شر جند الفرنسيين وفسادهم. استولى الجنود على الكثير من المراكب التي تنقل البضائع في النيل. جعلوا من أخشابها وقودًا للتدفئة. وكانوا ينزلون على البلدة. يطلبون الأموال والغرامات العينية. يعطون موعدًا بالساعات. إذا انقضت دون أن يفِي أهل البلدة بما هو مطلوب، بادروا إلى إشعال الحرائق، وإلى النهب والسلب. قد يقبضون على شيخ البلدة، يضربونه، يسحبونه معهم في الجبال، يذيقونهم أنواع التعذيب.

استطالوا على أهل القاهرة، وعسفوا بهم. اعتاد الناس نزول الجند إلى الشوارع والطرقات والأسواق، ينهبون الدكاكين، ويخطفون عمائم المشايخ، وينالون المارة بالأذى والتنغيص، ويفتكون بمن حاول زجرهم أو مقاومتهم. أظهر الناس استياءهم من المسابقات التي يجريها الجنود الفرنسيين على ظهور الحمير. تقتحم بالرعب نفوس المارة والمقعدين.

شارك الجنود الفرنسيون الجعيدية والأوباش سلب بيوت الأمراء والوجهاء والأعيان ونهبها. أغلق التجار والحرفيون محالَّهم، ولاذ الناس بالبيوت. فتح الجنود — بالقوة — دكاكين سوق السلاح، واستولوا على معظم ما بها. بدا البحث عن الأسلحة المخبأة ذريعة لنهب بيوت المماليك وأولاد الناس. أخرجوا سكان قلعة الجبل من بيوتهم. أنزلوهم إلى المدينة، وسكنوا بدلًا منهم. طردوا أهل القاهرة من دورهم لحاجة الجنود إليها. أخذوا ما بحوزتهم من الجياد والجمال والحمير والدواب. حطموا الكثير من البيوت والوكائل والدكاكين، ونهبوا ما لا يدخل الحصر من البضائع والأمتعة والأموال. اقتحموا بيوت الأمراء. أخذوا ما استطاعوا حمله من الأثاث والمشغولات الذهبية والنفائس والمؤجرات والستائر والسجاجيد والنقود والثياب والأقمشة. تركوا الأبواب مفتوحة. دخل النهَّابة واللصوص والأوباش. أتَوا على البيوت تمامًا. صارت مثل الأرض المجدبة.

أمر بونابرت، فعلقت أعلام الفرنسيين على الكثير من الدور التي يخشى أصحابها الأذى، وعلقوا مكاتبات أمان على دور أخرى.

وطِئهم الفرنسيون، وأثقلوا كواهلهم بالضرائب والمصادرات. طلبوا من التجار سلفة مقدارها خمسمائة ألف ريال. أظهر التجار عجزهم عن دفع المبلغ. تدخل كبار المشايخ والأعيان بالشفاعة اللازمة. خفض الفرنسيون إتاوتهم إلى الضعف، وحددوا أيامًا — كمهلة — لدفع النصف الباقي. فرضوا المبالغ الطائلة على أهل الحرف وتجار الأسواق كقروض مؤجلة الدفع، وما لا قِبل لهم على احتماله من المكوس والضرائب. وضاعفوا الضرائب على الحمامات والخانات والوكائل والمعاصر والسيارج والحوانيت والأسواق، وعلى حالات نقل الحيازة، وجميع الأوراق الشرعية، مثل صكوك الزواج والوصايا. ألصقوا أوراقًا بهذا المعنى على المفارق والطرق ورءوس العطف وأبواب الجوامع. أرسلوا نسخًا منها للأعيان. ألزموا التجار بالحصول على رخص لقاء مبالغ مالية، واخترعت ضرائب للتسجيل وللممتلكات. عينوا المهندسين ومعهم أشخاصًا لتمييز الأعلى من الأدنى، وشرعوا في الضبط والإحصاء. لولا الخشية من غضب تغمض نتائجه، ما ترددوا في فرض الضرائب على الجوامع والتكايا والأضرحة.

تواترت المصادرات، وحل بالناس ما لا يوصف من المظالم. أنكروا أحكام المواريث. لا شيء يحصل عليه ورثة الميت، وإنما اعتبر الفرنسيون أنفسهم هم الوارث الوحيد، يصادرون الأرض والعقارات والأموال، فلا يبقى لورثة الميت إلا ما يقيم أوَدهم. أذلوا أغنياء الناس وفقيرهم بكل ما أسعفتهم به الحيل. زاد الفقراء فقرًا، ولم يَعُد الأغنياء يملكون قوت أيامهم. ارتاعت الخلائق، واستبد بهم الخوف والفزع. أسرفوا في وضع قواعد من الخبث،

وأسس من الكفر، ودعامات من الظلم، وأركان من البدع السيئة. أقبل جنودهم على أنواع المأكولات مثل الكلاب المسعورة، فتضاعفت الأسعار. مسحوا أثر الغائط بأوراق المصاحف، وقذفوا بها ملطخة في الطريق والمراحيض.

أعدموا رجلين بتهمة التجسس لصالح المماليك، وطافوا برأسيهما وهم ينادون بالقول: هذا جزاء من يخدم المماليك!

فصل

ظلت الأسواق مغلقة، وتوقفت حركة البيع والشراء. ارتاعت الخلائق، واستبد بهم الخوف والفزع. عانوا من توقع الآتي.

جعل الفرنسيون القلعة لضباطهم وجنودهم. أحاطوا جوانبها بمدافع تتجه فوهاتها نحو القاهرة. هدموا جامع أبي هريرة بالجيزة، والجامع المجاور لقنطرة الدكة. وهدموا — بدعوى تحصين القاهرة — الكثير من الدور والبنايات الأثرية والأسوار والجدران والمساجد والزوايا والخانقاوات.

دمروا قصر يوسف صلاح الدين، وما خلفه الملوك والسلاطين. شوهوا قصر الملك الناصر محمد بن قلاوون. بدلوا معالم باب العزب بالرميلة، ومحَوا ما كان به من آثار السابقين، وسلبوا الأسلحة والورق والبلط والخوذات والحراب الهندية. أحاطوا القاهرة بالقلاع، فوق التلال والأماكن المرتفعة. أزالوا بنايات ومواضع كثيرة. أقاموا في مواضعها ما يسهل لهم حسن القيادة، والتصرف في الأمور، والمحافظة على أمن جنودهم.

هدموا البنايات المقابلة لبيت الألفي، فظهر ميدان متسع المساحة. هدموا بقية الدور، وقطعوا الأشجار، وأزالوا تلال الأتربة بما يمهد طريقًا من بيت القائد العام إلى قنطرة المغربي، ومنها إلى بولاق. وحفروا على كل جانب خندقًا. كما غرسوا شجر السيسبان بامتداد الطريق.

أفردوا في بيت حسن الكاشف جملة كبيرة من كتبهم، عليها مباشرون يحفظونها، ويأتون بها للطلبة، ومن يريدون المراجعة يجدون فيها مرادهم. يجتمع الطلبة منهم ساعتين بعد ظهر كل يوم. يجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب، على كراسي منصوبة، موازية لسبورة عريضة مستطيلة. من يريد المراجعة يطلب منها ما يشاء. يحضرها له الخازن. يتصفحون، ويراجعون، ويكتبون. حتى أسافلهم من العساكر، إذا أراد المصريون الفرجة لا يمنعونهم من الدخول. يتلقونهم بالبشاشة، وإظهار السرور. يحضرون لهم أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكورات البلاد والأقاليم.

فصل

أفلح الحاج أبو بكر باشا وأمراء المماليك وأتباعهم، وأعداد كبيرة من أهل مصر، في الانتقال من الصالحية — عبر صحراء سيناء — إلى غزة.

بدأ عبور باقي جند الفرنسيين من الجيزة إلى القاهرة. أسروا أعدادًا كبيرة من غلمان أمراء المماليك وجواريهم وزوجات بعض الكشاف وأتباعهم ممن لم يرافقوا المغادرين للقاهرة. تشفَّع كبار المشايخ والأعيان في الأسرى، فلا ذنب لهم ولا جريرة. أعتقهم بونابرت — مراعاة لخاطر من قصدوه — وشدد على جنده، فلا يقدموا على الأفعال القبيحة، ولا ما يضير النفس والمال.

فازت النساء بالحياة وحدها، دون أن يحصلن على ما يستر أجسادهن، أو يسكت صراخ بطونهن. تجمَّعن في صحن الأزهر، حاسرات الرءوس، حافيات، يسألن أهل الخير ما يحفظ عليهن الحياة.

فصل

واصلت قوات الفرنسيين سيرها — عبر الخانكة وأبي زعبل — إلى مديرية الشرقية. أرادت أن تمنع محاولات تجميع الأمراء الفارين لصفوف فرسانهم، بالإضافة إلى الاتفاق مع بدو الصحراء ضد العدو المشترك، واستولى الفرنسيون على بلبيس دون قتال، وواجه الفارون من لصوص البدو ما يخطر، وما لا يخطر، على البال من ألوان السرقة والنهب والاغتصاب. لما اشتكى المنهوبة أموالهم وأمتعتهم للقائد العام ما حدث لهم على أيدي لصوص البدو، قال لهم في لهجة مؤنبة: ولمَ رافقتم الأمراء إلى المنصورة؟

أمر، فأعيد الجميع إلى القاهرة — وكان من بينهم كبير التجار أحمد المحروقي — تحرسهم طائفة من فرسان الفرنسيين.

فصل

زار بونابرت — بصحبة عدد من أعوانه — جامع السلطان حسن.

تأمل القبة والمئذنتين والصحن الواسع والرخام والزخارف على الأرض والجدران، وأشغال الخشب والبرونز في الأبواب والأفاريز المعدنية، وتموُّج الألوان ما بين أزرق سماوي وأخضر وذهبي وأحمر، وأشكال الزهور والتكوينات التي تحاكي النبات، والمصابيح المتدلية

من القبة. زار — في الأيام التالية ترافقه الدهشة — جوامع: الحسين والسيدة زينب والأزهر والسلطان حسن وشيخون والإمام الشافعي والمشهد الحسيني ومسجد كتخدا بالأزبكية ومسجد الملكة صفية ومسجد البرديني وجامع محمد أبو الذهب وكسوة الكعبة ومستشفى قلاوون والقلعة والأهرام وأبو الهول والجيزة والروضة والمقياس ومصر القديمة والأديرة.

أطل القائد العام على القاهرة من فوق القلعة. الوادي أمامه حتى أهرامات الجيزة. يمتد الأفق بعده — إلى نهايته — في الصحراء الليبية.

أقام الفرنسيون في الناصرية، دار الأمير شركس، مملوك محمد بك أبو الذهب. اتخذوا من القلعة موضعًا لنصب مدافعهم، وبثُّوا جنودهم في الحصون والأبراج والمزاغل، وأمروا سكانها بترك دورهم، والنزول إلى المدينة للسكنى بها. غيَّروا ملامح القلعة، وشوَّهوا معالمها، ومحَوا ما كان بها من آثار الحكام السابقين. شددوا في طلب الأسلحة، والبعد عما يسيء إلى عسكر الفرنسيين. كل من يقاوم القائد العام فهو مقاوم حدود الله، ولا بد من أن يدان. نادَوا بذلك في الميادين والأسواق، وألصقوا منشورات على جدران الجوامع ومفارق الطرق. ونُودي بوضع العلامات المعرفة بالوردة. دليل الطاعة والخضوع. ثمة من رفض، وثمة من وجد فيها ما لا يخل بالدين. الموافقة بالإكراه تدخل في إطار التقية، اتقاء الضرر والأذى بلا مقابل يناله المرء.

خلع بونابرت على مشايخ قبائل العربان فاخر الخلع، وأهداهم الجياد المسومة. قيض لكل منهم خرجًا يليق بمكانته، ويغري قبيلته بتقديم واجب الخضوع والاحترام.

وقع قانونًا يقضي بالقبض على جميع الناس الذين يسألون الناس في الطريق، ويطلبون الحسنة منهم، وإحضارهم أمام ضابط مصر، ثم ترحيلهم إلى سجن القلعة، ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن العمل. كما يقضي القانون بأن تعمل كل ملة من الإسلام والنصارى، أروام وقبط وشوام، ومن اليهود أيضًا، حانوتًا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل، يكون مُعدًّا لهم، وأن يلتزم كل رئيس ملة بلوازم حانوته، وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الأكل والشرب وغيرها، وأن يجمع كل كبير ملة فقراء ملته، فيرضيهم، ويعطيهم لوازم الأكل والشرب والسكن، بما ينهي تدبير الحوانيت المذكورة، واستكمالها.

نظر أهل القاهرة بضيق إلى إقدام الفرنسيين على تدمير البوابات، وفتح الأحياء. أرادوا منع إغلاق الدروب، وإيقاف المواصلات. وجد الناس في ذلك انتهاكًا لما ألفوه من الجيرة المحددة والصداقة والتكافل.

قسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام. ترأَّس كل قسم منها ضابط فرنسي، يُسمى القومندان، أو حاكم الخط. أوكل لمشايخ الحارات حفظ الأمن في مواقعهم.

أمر القائد العام، فأُنشئت لجنة لإدارة الشئون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق، ووضعت لوائح لنظافة المدينة، فيداوم الأهالي على الكنس والرش وتنظيف الطرق من الأوساخ. ونفذت الأوامر بدوام تنظيف الشوارع، وإماطة الأذى عنها، وإزالة العوائق منها، وتحسينها، والإكثار من بيوت الخلاء العامة في الأحياء المختلفة، حتى لا تتلوث الأسواق والشوارع والميادين. حظر على الناس رفع الملابس المنشورة على حبال الغسيل قبل ثلاثة أيام من غسلها، وطالبهم بتطهير داخل البيوت وخارجها، وتبخيرها بالبخور الطارد لرائحة العفونة. أمر القائد بأن يدفن الأهالي موتاهم في المقابر البعيدة، وينشروا الثياب والأمتعة فوق الأسطح أيامًا متوالية، وتبخير البيوت بالمطهرات، فتتطهر من أذى الطاعون. عين لكل حارة امرأة ورجلين، يدخلون البيوت للكشف عن صحة نشر الثياب، فتذهب العفونة الموجبة للطاعون. بدأ القواسة من خدم الفرنسيين في هدم المراقد والمزارات في تربة الأزبكية. انطلق أهل الموتى كالجراد من حارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب. تجمعوا — بالضجيج والصياح — تحت بيت القائد العام. نزل إليهم التراجمة. اعتذروا بأن القائد العام لا علم له بما حدث، وأنه أمر بمنع الدفن فقط، فعادوا إلى بيوتهم مطمئنين.

فصل

ظل أهل الإسكندرية ليلهم فوق الأسطح وخارج البيوت. يتابعون أصداء المعركة في خليج أبي قير بين الفرنسيين والإنجليز. لم تهدأ أصوات دوي المدافع ولا الانفجارات إلا بعد ظهر اليوم التالي.

عندما لاح خليج أبو قير أمام الأسطول الإنجليزي، كان الأسطول الفرنسي راسيًّا بأكمله في الخليج، وكان نابليون بونابرت في القاهرة.

ارتفع دوي المدافع. حجب الدخان صفحة المساء ومرئيات البحر. تعالت النيران والصرخات والحشرجات. اختلطت السفن، فلم يفطن البحارة إن كان ما وجهت إليه مدافعهم من سفنهم أم من سفن الأعداء.

دمر أسطول الإنجليز كل ما كان يضمه أسطول الفرنسيين من سفن. غاص في أعماق البحر أربعة آلاف قتيل فرنسي، ودمر أسطول الحملة عن آخره. حتى السفن العشر التي

سلمت من الغرق، رفعت الأعلام البيضاء مستسلمة. حتى الكنوز التي قدم بها الفرنسيون من مالطة، ابتلعتها المياه. وصل إلى الشاطئ أقل من ثلاثة آلاف بحار، من أصل ثمانية آلاف. قُتل الآخرون، أو أُسِروا.

لم يَعُد بمقدور الفرنسيين أن يتحركوا خارج مصر خطوة واحدة. سدت السبل أمامهم تمامًا، حُوصر أفراد الجيش البري، فهم أشبه بالأسرى، أو المحاصَرين، في داخل مصر. قطعت جميع الاتصالات مع بلادهم: البريد والتموين والنجدات العسكرية والأموال. أُلغِيت كل احتمالات العودة. بدت العودة إلى فرنسا — أمام الضباط والجنود — احتمالًا واهيًا. لم يَعُد نابليون يملك توقعًا للحاضر، ولا خططًا للمستقبل.

قال لضباطه في نبرة مهونة: لم يَعُد لدينا أسطول؟ حسنًا. فلنمُت هنا، أو نخرج عظماء مثل السابقين. ما حدث سيدفعنا إلى فعل أشياء لم نُعدَّ أنفسنا لها!

ووشى صوته بانفعال: ما حدث يحرضنا على أعمال مهمة. حلم إمبراطوريتنا العظيمة قائم، وعلينا أن نقرِّب يوم تحقيقه. نحن لم نَعُد سادة البحر، ولم يَعُد البحر بالتالي يصلنا بالوطن. لكن البحر لا يفصلنا عن آسيا وأفريقيا، ولدينا من الرجال ما يشكل نواة جيش.

الباب الثالث

فصل

نادى الشيخ خليل البكري على الخادم فياض.

دلَّى الخادم الدلو في البئر. عاد به إلى الشيخ لوضوء ما قبل صلاة الظهر. ثم قدِم بإبريق الماء والطست الصغير والمنشفة.

– زينب ... متى عادت من الحمام أمس؟

قال فياض وهو يغالب ارتباكه: لم يكن أذان المغرب قد ارتفع في جامع الشيخونية.

– ألم تصحبك مع خدمها؟

قال الخادم في ارتباكه: نعم ... كنت مع خدمها.

ارتدى الفراجية، جبة واسعة طويلة الأكمام، أكمامها غير مشقوقة. وضع على رأسه عمامة، فيها علامة خضراء بارزة للخاصة والعامة، دلالة على النسب الشريف لآل البيت. لأسرته مكانتها المتوارثة. تنحدر من فاطمة، ابنة النبي، وعلي وأبو بكر وعمر خلفاء رسول الله. البكري والسادات هما رئاسة الأسر الشريفة في مصر. في ١٧٩٣م مات السيد محمد البكري نقيب الأشراف، وشيخ السادة البكرية. لم يُخلف ذرية، فورثه في مشيخة البكرية خاله، السيد خليل البكري. نقابة الأشراف تولاها السيد عمر مكرم أفندي الأسيوطي.

أبلغه تلاميذه بما يتردد في الأسواق من أن الناس يلجئون إليه لبعض المقتضيات والشفاعات، فيخذلهم. وأنه استهوته لذائذ الدنيا، ففاق مستوى معيشته ما عليه أمراء المماليك. يضخم من حجم عمته، ويوسع كميه، ويحمل الكتب بين يديه ليبدو في هيئة المعلم. يعشق — في الوقت نفسه — ملمس الحرير، ويتجمل بالجواهر، ويضع على مائدته أطيب الطعام وأجود الخمر، ويضفي العز على آل بيته. ويضيف إلى حياة اللهو والبذخ الماء

الفاتر، والستائر المسدلة، وضوء الشموع، وضحكات الصبايا، والبخور الزكي الرائحة، ويعرف الفرق بين الأدوار والألحان والبشارف من عزف الفرقة الموسيقية التي ترافق نغماتها تناوله للطعام في بيت الأزبكية، وقيل إنه يكثر من اقتناء المماليك والجواري البيض والسود والصفر والأحباش، ومن القوقاز والأهواز، واقتناء العبيد والخدم، وأنه هجر مجالس العلم، وانشغل بسماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة، وشوهد — وقد استغرقته نشوة الطرب — يردد الألحان، ويتصايح، وينقر بأصابعه على نغماتها. ربما شقَّ جيوبه، وألقى بعمته. وكان يديم التنزه — مع أصدقائه — في قارب بالخليج، يصحبهم موسيقيون يعزفون ما يطرب.

استُبعد من خلافة أخيه في خلافة مشيخة البكرية، لاتهامٍ بالرعونة، وارتكاب أمور غير لائقة، وأنه ليس أهلًا لمشيخة السجادة. حصل ابن عمه محمدٍ على المنصب، بينما حصل عمر مكرم على قيادة نقابة الأشراف. لم يحصل هو على قيادة المشيخة إلا عند موت ابن عمه.

من حقه أن يلحق زمنه.

لم يحقق ثروة كتلك التي حققها سلفه الشيخ محمد في أثناء توليه مشيخة البكرية، وحصل المشايخ الآخرون — قبل مجيء الفرنسيين — على مكاسب يحتاج إلى تدبير سنوات ليقترب منها. هو نفسه الأستاذ الإمام، صاحب الأسرار، وخاتمة سلسلة المختار، الشيخ خليل البكري شيخ سجادة السادة البكرية، ونقيب الأشراف. من حقه الإشراف على جميع الطرق والتكايا والجوامع والمساجد والزوايا ومقامات الأولياء.

استعاد بيت الأزبكية بأكمله. قسم الأمراء البيت إلى نصفَين، أحدهما له، والثاني لأحمد البكري. أعاد عمارته وزخرفته، وألحق به بستانًا فيه أشجار برتقال وزينة وورود ورياحين. اقتنى الجواري والخدم والخصيان والعبيد؛ لأن ذلك ما كان يفعله سراة العصر ووجهاؤه. لم يكتفِ البعض بما يقتني من جوار، لكنه انساق لرغبته في استجلاب نساء لم تضمهن، ولا مثلهن، قصور العلماء والوجهاء الآخرين. يوصي بالجواري البيض في وكالة كشك وخان جعفر. يرفض التردد على وكالة الجلابة بالصنادقية، أو وكالة الرقيق بالقرب من خان الخليلي. تقتصران على العبيد المجلوبين من إفريقية. يطيل التحديق إلى جسد الجارية. يدفعها إلى نزع ملابسها. يفتح فاها ليشاهد أسنانها، يتابع خطواتها متمهلة، ليتعرف على تماسك صدرها.

إذا كان قد كتم خوفه على التزاماته: خمس قرى في الشرقية والمنوفية والجيزة؛ فإن ذلك ما فعله شيخ السادات في خوفه على قراه العشرين، والشيخ عبد الله الشرقاوي في قراه

الست، والشيخ محمد المهدي في قراه الإحدى عشر، ومشايخ آخرون، شغلتهم التزاماتهم في امتداد القرى المصرية، وحرصوا عليها، وخشوا أفعال الحرافيش وما قد تثيره من غضب الفرنسيين، فيمتد أذاهم إلى ما كان يصعب التصور أنه يصل إليه. إذا كان قد امتلك معملًا لتقطير صناعة الخل، ودكانًا للزبيب، وآخر لطحن البن، وبضعة مخابز ومقاهٍ، ومتاجر لبيع الغلال، وأجرى صفقاته المعلنة مع تجار الجملة والتجزئة ... إذا كان ذلك كذلك؛ فإن الشيخ الشرقاوي ترك لزوجه أمواله، تستثمرها له، وتشتري عقارات وبيوتًا للتأجير، وللسكن، ودكاكين، ووكالات، وحمامات. اتسعت عليه الدنيا، وزاد طمعه فيها. واستثمر الشيخ المهدي أمواله في تجارة القطن والأرز والكتان، وورث الشيخ مصطفى الصاوي مهنة السقاء من أبيه في السويس، قبل أن يعمل بالتجارة. ثم تولَّى التدريس في المدرسة الصلاحية، وفي جامع الأزهر، وجرت عليه الدنيا بما لم يكن يتوقعه من أموال وعقارات وأراضٍ زراعية.

أهمل حتى ما نقل إليه من أن علماء الدين يأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها، ومن فلاحيهم، تحت حمايتهم، ونظير صيانتها، واغتروا بذلك، واعتقدوا به، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة، وافتتنوا بالدنيا، وهجروا مذاكرة المسائل، ومدارسة العلم، إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية. وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء المماليك، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب. اعتاد الخدم رؤيتهم في الحمامات العامة أوقات منع الدخول، وفي دور الجواري وأجنحتهن. صار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية، والحصص، والالتزام، وحساب الميري، والفائض، والمضاف، والرماية، والمرافعات، والمراسلات، زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية.

حتى الشيخ محمد أبو الأنوار، شيخ السادات، قلد أمراء المماليك في أساليب حياتهم، وفي إقباله على شراء المماليك والرقيق، وقلدهم في لباسهم، وابتعد — بالتالي — عن زي المتعممين والفقهاء والقراء. يضج قصره المطل على بركة الفيل بالعز والأبهة. قاعة «أم الأفراح» الهائلة، المزدانة بالنقوش الذهبية والقيشاني والرخام الملون. المكتبة الهائلة تضم أرففها مئات المجلدات والمخطوطات في علوم الدين والأدب والتاريخ، وأنواع المآكل والمشارب والملابس والعطور والمقويات، والعشرات من الجواري والعبيد والمماليك والخدم والخصيان، والعديد من الإسطبلات الواسعة، تمتلئ جنباتها بالجياد العربية الأصيلة ذات السروج المزينة بالذهب والفضة، والحدائق الزاخرة بألوان الزهور والرياحين والثمار. وثمة مسجد

ملحق بالقصر، يؤدي فيه الشيخ صلواته مع المقربين إليه، فلا يضطر إلى ترك أسوار القصر. يترفع على أقرانه من العلماء والوجهاء، ويميز نفسه عليهم بقاووق بعمامة خضراء، مشابهة للأمراء، ومخالفة للمعممين والفقهاء والمقرئين. يؤدي دور مسئول الشرطة من حيث العفو والإدانة والقضاء بالضرب والجلد. كان أتباع الطرق الصوفية: الأحمدية، السعدية، الشعيبية، يتقاطرون تحت نوافذه في أيام الأعياد والمناسبات الدينية. زاد، فحض خطباء الجمعة على مديحه، والثناء عليه. لم يبقَ إلا أن يقول الخطيب بعد كل صلاة: اركعوا، واسجدوا، واعبدوا شيخ السادات!

منحته دولة الخلافة إقطاعًا واسعًا في زفتى، وأعفته من كافة أنواع الضرائب. عهد إليه بإدارة المشهد الحسيني، وجامع السيدة نفيسة، وجامع الإمام الشافعي. جنى من صناديق النذور والصدقات والزكوات ثروات طائلة. حتى مولد الحسين — الذي تولى مسئوليته — جنى منه أضعاف ما أنفق عليه. لم يكن يجد حرجًا في ضرب كبار موظفي الدولة إن أهملوا تنفيذ مطلب له. وكان يستدعي إلى بيته من تتغير عليه نفسه، أو يريد عقابه لأمرٍ ما. يؤذيهم بالضرب والشتم والإهانة. ربما فرض عليهم الحبس والضرب بالكرابيج، أيامًا متواصلة.

لم يحاول الشيخ محمد المهدي مداراة علاقته بالفرنسيين. يجتمع بهم في العلن، ويواصلهم، ويصادقهم، ويساعدهم على أداء ما يطلبونه، ولو على حساب الناس. هو ابن قبطي، تحول إلى اعتناق الإسلام، بعد أن رباه الشيخ الحنفي الشهير — مع أولاده — وسهر على تعليمه. تأكدت شهرته منذ بدأ التدريس في الأزهر، وتحققت له فوائد كثيرة من رواتب الوظائف. زادت ثروته، ورغبته، وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا، وعاين الشركات والمتاجر في كثير من الأشياء، مثل الكتان والأرز وغير ذلك. صرفه هذا الانهماك في أطماع الدنيا عن التفرغ للعلم. ولم يكن يصبر على دروسه بالجامع الأزهر. وكان يهمل فيها، مع أنه لم يكن يدرِّس إلا يومين كل أسبوع.

مسح المكان بعينَين متأملتَين: الفرش الفاخرة، والوسائد، والطنافس، وأنواع الأحمال، والقناديل، والزينة، والأرضية ذات الرخام الملون، والشمعدانات، والنجف المطلي بالذهب والفضة، والشموع، والفوانيس، ومجامر البخور، ورائحة المسك. والجدران المكسوة بالبلاط القيشاني والمعلقات: السيوف، والخناجر المذهبة، والآيات القرآنية، والمرايا الهائلة.

أهمل كل شائعات الأسواق والجوامع والحمامات والحجرات المغلقة، وإن داخله توجس من مؤاخذة الناس على تداخله في الفرنسيين، واستقباله لهم في بيته. حتى أولاد الناس والعوام من أهل البلد لا يقابلون زوارهم في البيوت. مقابلات أرباب الطرق في

الحضرة، أو في حلقة الذكر، أو عند مقام الولي. ثمة لقاءات في الأعياد والموالد، هي المضي إلى ضواحي المدينة، في الخلاء والصحراء والقرى القريبة.

الاتهام بأنه يعمل في خدمة الفرنسيين، يشحب في ممالأة الشيخ الشرقاوي لهم. نقم في نفسه تفضيل الشرقاوي عليه لتولي مشيخة الأزهر، لكنه ظل على علاقة طيبة مع أمراء المماليك. رضي عنه الفرنسيون، فجعلوه رئيسًا للديوان، وخصصوا له المعلوم المرتب، وقبلوا شفاعته — التي تقاضى عنها أجرًا — لأفراد من المماليك، وسكتوا عن استيلائه على تركات وودائع تركها أصحابها وفروا من الفرنسيين. نشأ في بيئة فقيرة، أقرب إلى الوضاعة. كان نادرًا ما يطبخ في بيته. تدنت نفسه، فقبل الهدايا والصلات والزكوات. ثم ارتقى حاله حتى أصبح شيخًا للجامع الأزهر. انقلبت حياته من يومها. أفاد من حق النظارة على الأوقاف المخصصة لأروقة الأزهر وجامعه، وتعددت رواتبه من موارد مختلفة، مثل أوقاف مكة والمدينة، والتزم ببعض القرى في مديرية الشرقية، حيث وُلد ونشأ.

تواصلت رئاسته في الديوان العمومي، والديوان الخصوصي. أصبح — بفضل الفرنسيين — متمولًا كبيرًا. تخصصت زوجته في إدارة أمواله واستثمارها. اشترت عقارات وبيوت وحمامات للتأجير، وبنايات للسكنى، تُدر عليه إيجاراتها دخولًا مهمة كل شهر. أقبلت عليه الدنيا بما لم يكن يتصور هو نفسه. اشترى العقار والأملاك والحمامات والحوانيت. غلت عليه إيرادات شهرية، أتاحت له العيش في رغد. صار يلبس أفخر الثياب، ويأكل الطعام الساخن مما يُعِده الخدم في بيته، وينام على سرير وثير ذي أعمدة، ويمتلك من الأموال ما يفرض عليه الدِّين أن يدفع الزكاة عليها. داره على بركة الأزبكية. مملوءة بالتحف النفيسة، والكتب النادرة المجلدة. تحدد عالمه في القصور ومجالس القائد العام والجواري والعبيد والأغوات والقماقم والمباخر والعز والأبهة. خصَّ نفسه بأعوان وأتباع وخدم من خواص الناس، تمييزًا لمكانته بين الآخرين. يسيرون من أمامه وحوله، بأيديهم العصي يوسعون له الطريق. إذا كان الناس يوقرونه لمواقفه ضد مظالم المماليك؛ فإن صوته هو أيضًا قد ارتفع برفض ما وجد فيه أذًى للناس.

أفاد الشيخ المهدي من أيام الفرنسيين بما لم يتحقق لأحد سواه. برر للفرنسيين احتلالهم بأنهم لم يأتوا إلا لطرد المماليك، بعد أن نهبوا الأموال. لا يتعرضون للرعايا في شيء. تركوا له أمر الكثير من البلاد والعباد والأرزاق. يسروا حصوله على هدايا الفلاحين من الأغنام والماعز والجمال والخيول والعسل، لقاء قبول الفرنسيين شفاعاتهم، ورفع العقاب عنهم، وتخفيف ما يفرض عليهم من الغرامات. حتى ممتلكات النازحين والموتى ضمها إلى ممتلكاته.

رفض القائد العام أن يسمي الجودرية باسم البكرية. هو الأولى بأن يطلق اسمه على الحارة بدلًا من جوذر خادم المهدي. جعل هذه الدار في الجودرية للزوجة والأبناء. داره بناحية الأزبكية موضع الاحتفالات التي يستضيف فيها القائد العام، والاحتفالات المهمة. تطل على الخليج. القاعات الفسيحة، كسيت جدرانها. أرضيتها من الرخام الملون والقيشاني. تطل على حديقة واسعة. ضاقت الدار والأماكن الملحقة، بالهدايا والتقادم. بنى من المخازن والإسطبلات ما يسع المزيد.

ابتسم — بينه وبين نفسه — لتذكر تجربة، كأنها المعجزة، أجراها أمامه العالم بيرتوليه.

قال للعالم الفرنسي: هل يتيح لك علمك أن تكون في مصر وفي المغرب في الوقت نفسه؟

هز الكيميائي الفرنسي كتفيه دلالة النفي.

قال البكري: أنت لست ساحرًا حقيقيًّا!

فصل

لاح النور في أسفل السلم. رأت من موضعها على السرير الجارية زمردة تمد يدها بالقنديل في يد، وبمجمرة البخور في اليد الثانية، وتصعد بخطوات واهنة، وترنو بجانب عينها إلى الحجرة. ظلت زينب في موضعها، حتى دخلت زمردة. علقت القنديل على الجدار، ودارت في الحجرة بالمبخرة وهي تردد آيات قرآنية وأدعية.

لصق الجدار سحارة هائلة للثياب من خشب الصندل، ذات أدراج، وتحيط بإطارها نقوش صغيرة.

رفعت زينب كتفيها على مسند السرير ذي القوائم المرتفعة، أزاحت الناموسية الشفافة، ونزلت على درجتين من الخشب.

راحت زمردة تمرر المبخرة فوق رأسها، في حركة دائرية، وهي تتلو بعض الأدعية. كانت الأجراس الذهبية الصغيرة التي تدلت من الخلخال الذهبي في ساقها، تصدر وسوسة في أثناء حركاتها، وكانت زينب ترنو إلى ما لم تتبينه المرأة، ولا زينب نفسها.

كانت زمردة على صلة بأهل العوالم السفلية. تراهم رؤية العين، وإن اختفوا عن أعين الناس، وتتحدث عما كان، وتتوقع ما سيكون. كانت تفسر الرؤى المقبضة، والأحلام المخيفة، والكوابيس. وكانت تصادق الجان. تراهم، وتحادثهم، وتدخل معهم في أسئلة وأجوبة. لا ترى الأعين في الهمسات ولا ارتفاع الصوت ما يقلق. يدركون أنها قد استغرقت

في أحاديثها مع الجان. ربما صرخت، وشوحت بيدها. يطمئن أهل البيت إلى أنها طردت الجان من البيت. يعودون بعد غياب، أو يأتي جان آخرون.

لم تكن الجارية تعرف غير أسرة البكري، منذ اشتراها الجد الكبير. أجادت — في صباها — الغناء، وضرب الدف، والنفخ في الناي، وعزف العود، والتأود، وهز الخصر. حفظت ما لا نهاية له من أحاديث الخوارق والحكايات، وحكايات البشر والحيوان والطير والزواحف وعرائس البحر. أعطاها خليل البكري حريتها، لكن إحساس الجارية لم يزايلها، أو أنها لم تعرف ماذا تفعل بحريتها. لم تَعُد مجرد جارية. أصبحت واحدة من الأسرة.

لجأت إليها زينب. علمتها أصول الرقص. تغني وترقص على ما تصدره الجواري من إيقاعات بآلات الطرب.

فصل

قالت زينب: لماذا تقتصر التقاليد علينا؟ معظم النسوة لم يَعُدن مجبرات على التقيد بالحجاب.

زوجات الفرنسيين وصديقاتهم — عرفت أن الزواج ليس شرطًا للعلاقة في حياتهم — يسرن في الشوارع سافرات، يركبن الخيل والحمير، يطرحن الحشمة والوقار والمبالاة. يمِلن إلى التبرج والخلاعة، ينزعن نقاب الحياء بالكلية. يقضين الأوقات في بركة الأزبكية، تصحبهن آلات الطرب. وشردت في الفراغ: أنا لا أفعل هذا … أخرج منقبة، ولا أترك العربة إلا أمام المكان الذي أقصده.

لماذا بيوت العلماء والأشراف من طبقته مغلقة على النساء، لا يحاولن تركها، بينما ابنته تترك البيت في أي وقت، وتعود متى تشاء؟

تغيظه تصرفاتها، تفتقر إلى الحشمة والأدب. تفعل ما يحلو لها، تهمل الملاحظات والتحذيرات.

قال خليل البكري: لكنك تكثرين من الخروج بلا داع.

اتجهت إليه بملامح منفعلة: أذهب إلى الحمام أو لزيارة صديقاتي.

الحمام هو الحجة التي لن يردها أبوها إذا أرادت الخروج من البيت.

– قللي من هذا التصرف فتُسكتي الألسنة.

كتمت رؤيتها له — كل ليلة — وهو يتناوب شرب الخمر حتى يثمل، وقوله لأحد أصدقائه: بوسع المرء أن يشرب الخمر ويضمن الجنة، إن كفَّر عن فعلته بخُمس دخله بدلًا

من العُشر المألوف! رأته — في ليال كثيرة — من زيق باب حجرته، يخلط زجاجات الخمر، يظل يعب منها حتى يغلبه النوم.

قالت الأم: أنا على ثقة من أخلاق ابنتي، وإن كنت أوافقك على أنها إما أن تصحبني أو تؤنسني في البيت.

هدد البكري بأن يأذن للخصي، فيؤدبها بالضرب. هو يدرك أن المرأة من جهة العقل أحط درجة من الرجل.

اعترضت الأم على الفكرة: هل ترضى لابنتك أن يؤدبها خصي؟

اختلج صوته بنبرة غضب: هل ترضين لمكانتي أن تؤذيها ابنتك؟!

قالت الأم وهي تعدل على رأسها عمامة من الحرير، مطعمة بخيوط من الذهب: لا ترهق البنت. إنها تعيش في حجرة لا تطل على الجودرية.

كانت الأم أميل إلى الانزواء، وإن أشاعت في البيت حضورها القوي. لعينيها بريق يشي بقوة شخصيتها. لم تكن تشكو علة أبدًا. تظهر إحساسها بالمرض، حين تخلط الأعشاب بالماء العادي، أو ماء الورد، وتدهن مواضع في جسدها.

لاحظت الأم — في طفولة زينب — أنها تميل إلى الأفعال الغريبة التي ربما لا تتفق مع جنسها ولا سنها، ومحاكاة الأولاد في ألعابهم مثل المصارعة واللكم، وتميل إلى العراك مع الأولاد والبنات، تحتمي بخوفهم من مكانة أبيها. تضربهم بما تصل إليه يدها، وتصرخ إن حاولوا الدفاع عن أنفسهم. تحرص على أن تلفت الأنظار إليها. تركب الخيل، وتتسلق الأشجار، ربما أخذت ما بداخل الأعشاش من البيض، أو فراخ الطير. حتى النخلة العالية في بيت الأزبكية، كانت تصعد إليها مثل الأولاد، وتنط، وتقفز. تهمل نداءات أمها والأغا بأن تنزل من النخلة. تواصل التسلق حتى تبلغ أعلى النخلة، ثم تبدأ في الهبوط. تظل الأم تحت النخلة حتى تهبط زينب، فتربطها في النخلة نفسها كيلا تعود إلى ما فعلت. وكانت البنت تصر على أن تصحب أباها أو أمها أو أحد إخوتها، لا تطيق البقاء في البيت. وتلعب مع الخدم والعبيد نط الحبل والقفز والاستغماية، والحجلة. أهملت تخويف زمردة من سكان الأقبية ومخلوقات الليل والأعين الملتمعة بالشر والمتاهات وأفعال السحر.

رفض الشيخ البكري أن تذهب إلى الكُتَّاب، حتى لو اقتصر تلاميذه على أبناء العلماء والأعيان والسراة. جعل تعليمها على أيدي مدرسات خصوصيات، شيخات.

اطمأنت الأم إلى أن ما تفعله البنت من أفعال الشقاوة يصدر عن طفولتها، وأنها ستهجر ما تفعله في سن البلوغ.

نصحت زمردة بأن تذبح ضحية على عتبة باب البيت الخارجي، حماية لأهله من العكوسات.

فصل

استقبلت الكاتب — للمرة الأولى — في حجرة الطواشي. وقف في الغرفة المجاورة، لا يطالعه إلا صوتها. يتاح للطواشي ما لا يتاح له من التردد على غرف الحريم. أصاخ سمعه من انفراجة الباب بين الغرفتين.

أمرت له بقهوة، لم يكن من المأذون له أن يدخل حجرتها. يصعد من حجرته أسفل مسكن الحريم. يقف في الحجرة المجاورة. يتكلمان من خلال الحاجز الخشبي الفاصل بين بابَي الحجرتين. تُملي أوامرها، ويسجل ما تطلبه. التقاليد ترفض أن يحدق في المرأة رجل إلا إذا كان طبيبًا.

دفعت الحاجز، وواجهته بعينَين محدقتَين: أنت تنزل إلى الأسواق، وتخالط الناس ... لماذا يرفضون عضوية أبي في الديوان؟

وشى صوته الأخن بالارتباك. أشفقت من ارتعاشة أنفه، وتهدل وجنتيه المتهدلتَين، وشحوب وجهه، وفمه المفتوح، وعينَيه المشروطتَين، الخاليتَين من الرموش، يعلوهما حاجبان رفيعان. سرت الرعشة حتى في سرواله الأبيض الفضفاض، الضيق عند الكاحلين، وتلفيعة الصوف الملتفة حول رقبته.

قالت: لا تخف شيئًا. صارحني بكل شيء.

نكس وجهه إلى الأرض فلا يواجه نظراتها: لبعض الناس اعتراضاتهم على الديوان.

وهي تسند يدها إلى ردفها: من وافقوا عليه لم يعترضوا إلا على عضوية أبي.

وداخل صوتها استياء: لماذا؟

– هذا ليس صحيحًا.

– إما أنك تخشى أبي، أو أنك نائم على روحك!

وثقبته بعينَين مشتعلتَين: حتى النسوة في الحمام يتحدثن عن استثناء الفرنسيين لأبي بالاحتفاظ بجواده!

ومضت إلى حجرتها.

أهملت ملاحظة أمها أنها تحرص على الخروج سافرة، وتتعرض للرجال، وتتحدث إليهم دون حرج. ذلك فعل بعض الفتيات اللائي يردن تقليد نساء الفرنسيين في ارتداء

الملابس السافرة، ومبالغتهن في الخروج إلى الطرقات، بمناسبة وبلا مناسبة. للفرنسيين حياتهم، معتقداتهم، ولهم عاداتهم وتقاليدهم، وهم يخالفون — في ذلك كله — ما يجري عليه أهل مصر.

ترامى وقع حوافر الجياد، وصيحة الحوذي: هس!

ارتدت الثوب الفضفاض، السماوي اللون، والنقاب من الحرير الموصلي الكثيف، يحجب الوجه، ما عدا العينَين وأعلى الأنف، وتهيأت للخروج.

ما كادت تستقر داخل العربة، حتى نزعت نقابها. أصرت على الخروج — سافرة — في عز النهار. تطل — بعينَين مكحولتَين — من شقٍّ في الستائر المسدلة على نافذة العربة الموارِبة. لا تُعنى بآراء الناس ولا ملاحظاتهم.

فصل

ارتدت ثيابها، وتأهبت لمغادرة البيت. قميص واسع طويل، تصل أطرافه إلى الأرض. له أكمام واسعة. فوق القميص سبلة، إزار، يغطي الجسد. على الوجه حبرة بيضاء، وتضع على الرأس غطاءً خاصًّا من الشاش. وزينت جيدها وساعديها بالمجوهرات والحلي. رفضت نصيحة زمردة بعدم التردد على الحمام. صاحبه يأذن بدخوله للبرصاء والمجذومين. الحمام هو المكان الأنسب لتبادل الزيارات. يتبادل النسوة القهوة والشربات والفطائر. يستمعن إلى الألحان من فرقة العميان. تبلغ الحمامية بموعد قدومها. تخلي الحمام إلا لمن أبلغتهن بموعدها. تهمل إلحاح أبيها بأن يقتصر استحمامها على حمام البيت. وتهمل ملاحظته بميلها إلى البذخ والإسراف، فهي تزين جسدها وثيابها بكل ما تقتنيه من اللؤلؤ والماس والمرجان والمصنوعات الذهبية والقلائد والتيجان والأقراط والأساور والخلاخيل والنقود الذهبية والفضية.

تدخل الحمام من الباب الخلفي في درب المبيضة. ضيق، مغلق، تسبقها الخادمة إلى طرقه، فينفتح بتوقع الانتظار. تستقبلها الحمَّاميَّة في مدخل الحمام. الرسوم النباتية تحيط بالباب، والأرض مبلطة بالرخام المضلع، والجدران مغطاة برخام متداخل الألوان والتشكيلات، والأسقف — إلى القاعات والردهات والمقاصير — مزينة بزخارف، وعبارات ترحب بالزائرين، وتتدلى من منتصفها سلاسل المشكاوات والقناديل. زجاج النوافذ تتداخل فيه ألوان زاهية، والزجاج المعشق يأذن بدخول الشمس، في تكوينات، تضوي بألق، وتتراقص على السقف والجدران. تتوسط المكان نافورات على هيئة أسود، ينبثق الماء من

أفواهها، والمصاطب مفروشة بالرياش والأرائك والمساند الوثيرة، والخزائن مجللة بالمناشف المزركشة والمقصبة.

تُسقط الحجاب فور دخولها.

قالت الحمامية: تأتين إلى الحمام، فتنزعين كل ما عليك ... لا تضعين على الجسد الجميل سوى الماء الساخن.

وأومأت برأسها: تُتعبين نفسك بلا ضرورة.

كانت تحرص أن تضع على جيدها، وفي ساعديها، قلائد العنبر والأساور المرصعة بالأحجار الكريمة، وتلف خلخالًا من الذهب حول ساقيها.

أطلقت ضحكة ملونة: هل أظل عارية بعد حمامك؟

تنسى الوقت في تبادل الحكايات مع فتيات في مثل سنها، ونساء من بنات طبقتها. تتسلم منها ملابسها، وتغطِّي جسدها بفوطة، فلا يبين إلا الرأس والوجه والرقبة وأعلى الكتفين والأطراف. دسَّت قدميها في قبقاب رصِّع بالأحجار الكريمة.

حكت لصديقاتها ما رُوي عن نساء رشيد. رفعن عريضة إلى السلطان، يطلبن المساواة بزبيدة، بنت السيد محمد البواب، التاجر وصاحب الحمامات في رشيد. تزوجت ضابطًا فرنسيًّا كبيرًا، اسمه مينو. قدمها على نفسه في الطعام والسير والجلوس. لماذا لا يكون ذلك هو حال كل النساء؟!

دلفت إلى المغطس. بخار المياه الساخنة يغلِّف المكان بضبابية خافتة.

مضت إلى طرقة تسري فيها الحرارة. الحجرات على الجانبَين تعلو فيها السخونة بدرجات متباينة. بدا الجو ساخنًا عند الاقتراب من الحجرة الثانية. لطمها البخار الساخن المعطر، اخترق مسام البشرة. أنامتها الحمَّامية على مصطبة من الرخام. من حولها أربعة مغاطس ذات أحواض مطلية بالملاط، ينبثق من داخلها الماء.

بدأت المرأة في تدليك جسدها بقطعة صوف، مبللة بالصابون والماء، وطرقعة الأطراف، وحك كعبَي الرجلَين بالحجر الخفاف. تسرف في استعمال المسك والعطور وماء الورد وزيت الزيتون. دخلت حجرة مجاورة، فاغتسلت بمياه عين ماء ساخنة وباردة. ارتدت بشكيرًا. مضت إلى الحجرة الأولى. تقدم لها الخادمة — وهي ممددة على الأريكة — مشروبًا ساخنًا، أو فنجانًا من القهوة. أغمضت عينَيها، وهي تنصت — في نشوة — إلى عزف فرقة العميان — في الطرف الآخر من الحجرة — تعزف بشارف عثمانية وتقاسيم.

نادت «الحمَّامية» على «البلَّانة» نعناعة. تتنقل بين القاعة الخارجية والمغطس. تحمل العسل المعقود والصابون والمنشفة.

أزالت نعناعة الشعر الزائد من جسد زينب، وصففت شعرها، وزججت حاجبيها. أسلمت ساقيها للمرأة. أزالت الشعر منهما، ودلكت القدمين بالحجر الخفاف، ثم بقشر الخيار، ينظف وينعِّم.

تختار لها البلانة من سوق العطارين أفضل أنواع الحناء لصبغ شعرها، وطلاء أظافر يديها وقدميها.

تنبهت — في جلستها — على أصابع تربت كتفها ...

استدارت ...

– السيدة بولين.

في حوالي الخامسة والعشرين. أميل إلى السمنة. شعر كستنائي. عينان زرقاوان، تومضان بلمعة المكر، وترمقان ما حولهما بنظرات متوجسة. أنفها أقنى صغير. تتدلى من عنقها سلسلة ذهبية، تنتهي بصليب ذهبي صغير. ترتدي فستانًا أبيض، طرزت حواشيه بالدانتيلا البيضاء، وأحاطت وسطه بحزام عريض، أخضر، وغطت كتفيها وصدرها بشال من القطيفة الزرقاء. فوق شفتيها شعرات صفراء، خفيفة، وفي صوتها لدغة واضحة. تثق في نفسها إلى حد الجرأة، وربما التعالي على الآخرين.

قالت بولين نوريس: لك عندي رسالة.

– رسالة؟

– ليست رسالة مكتوبة ... القائد العام يريد أن يلتقي بك.

– نابليون؟ أنا؟ هل يعرفني؟

وداخل همسها خوف واضح: هل رآني في الحمام؟

ضربت المرأة صدرها: حمام تدخله بنت البكري لا يؤذن لرجل — حتى لو كان القائد العام — بالتطلع إلى ما بداخله.

ومالت على أذنها: لمحك عند زيارتك وأمك لي.

ولكزتها بأصابع مترفقة: سحرته عيناك من وراء النقاب، أذهلته عن مكانته، وما يجب أن يتخذ نفسه به من وقار.

– لكنني لم أرَه عندكِ.

– ربما أنت ... لكنه قائد عسكري يلمح كل شيء.

– ولماذا يزورك؟

– إني صديقته، وأجيد خياطة ثيابه كما أجيد خياطة ثياب أسرة البكري.

نسي هيبة مركزه. ظل يتردد على مشغل بولين. يحدثها فيما لا شأن لها به. يفتح — فجأة — الباب الواصل بالحجرة المجاورة. يسترد نظراته المتفحصة بملامح خاب توقعها.

لم تكن تملك إلا أن تنصت، وتبدي رأيها — أحيانًا — لمجرد توصيل الإحساس بالمشاركة.

حدثها عن زينب في لحظة غير متوقعة. عن ظروف رؤيتها له، وعن رغبته في أن يلتقي بها.

أسكت التساؤل في عينيها بهزة من يده.

القائد العام؟ قائد كل الفرنسيين والمصريين — يتحدث عنه أبوها بإعجاب وخوف — يريد أن يلتقي بها.

وهي تخطو إلى العربة الواقفة أمام باب الحمام، منحت الحمامية نقودًا من الذهب، بدلًا من البارات الفضية.

فصل

قدمت بولين نوريس في الموعد. ألفت المكان لكثرة ترددها عليه: موعدنا الليلة.

في خوف: أين؟

– في بيت القائد العام.

– أخشى أن يراني أحد.

– حين تُسدلين النقاب على وجهك ... لن يفطن أحد إذا كنت فتاة أم رجلًا.

– إذا عرف أبي ... قتلني.

– أبوك صديقنا.

– ليس إلى حد السكوت عن تصرفات ابنته.

ترامى صوت جرس من الطريق. أدركت أن القائد العام أرسل العربة التي ستُقلها. لم تَعُد الأم تستطيع منعها من مغادرة البيت. ولم تكن تستطيع إبلاغ البكري بخروج زينب عن حدود المسموح في حياتها. لا تضمن رد الفعل من الرجل، أو من البنت نفسها.

ركبت العربة المسدلة الستائر، يجرها جوادان. اطمأن الحوذي إلى انسدال ستائر نوافذ العربة، قبل أن يصعد إلى كرسيه، ويفرقع بسوطه في الهواء؛ ليبدأ الجوادان في التحرك. يتبعهما عبدان في يد كل منهما شومة، بخطوات مهرولة.

حاولت أن تطرد الخوف من نفسها. لو أن أبويها أدركا ما هي مقبلة عليه. تترك البيت إلى الحمام، لا تعود إلى البيت مباشرة، لكنها تسرق وقتًا لا يعلم به إلا الفرنسية والقائد

العام. أزمعت أن تظل تصرفاتها في حدود الحذر. أهملت العباءة التي ألفت ارتدائها. أسدلت على جسدها — بدلًا منها — ثوب خادمة. وضعت البرقع والقصبة في هيئة بنات البلد. اطمأنت إلى أن التعرف عليها — من النظرات المتسللة — لن يكون متاحًا. تخرج إلى الحمام، وإلى حيث تشاء، دون أن يلحظها، أو يتابعها، أحد.

قصر الألفي يتميز عن دار أبيها في الجودرية والأزبكية بفخامة تفوقه؛ فهو يتضمن ما لم يعنَ المشايخ بأن تحتويه قصورهم. أضاف إليه الفرنسيون ما يبهر من النقوش والزينات والطنافس والمرايا، والشمعدانات الفضية، والثريات الهائلة، ومعلقات الجدران.

الصحن تتوسطه نافورة من تداخل الرخام والحجر، تنبثق منها المياه. تعلوه «شخشيخة» هائلة يتسرب منها الضوء والهواء.

الواجهة مزينة بالمقرنصات والتيجان والقبب. الأرض مبلطة بالرخام المتداخل البياض والسواد. الشرفات بارزة من الخشب المخروط. الأسقف والزوايا مجفتة بالنقوش المذهبة. الجدران من الخشب المنقوش برسوم الزيت والزخارف الهندسية والنباتية. قطع الأثاث مطعمة بالذهب والفضة.

سبقها الحارس الشخصي إلى داخل القاعة الواسعة. استبدلت النقاب بالبرقع والقصبة على وجهها، وبقميص التافتاز الذي غطى كل ملابسها إلى أسفل القدمين، وإن تضوع منها عطر شرقي غامض لم يتبينه.

قال بونابرت وهو يمد ذراعيه: أهلا يا زينب.

أهمل ما أشارت به بولين نوريس. لا يذكر اسم زينب. من العيب أن ينطق اسم سيدة في بلد يلزم النساء بالحياة في الحريم.

فاجأها بأن ضمَّ خاصرتها بذراعه، وهو يشير باليد الأخرى إلى المقعد في ركن القاعة.

لم تكن تعرف القائد العام إلا من حكايات أبيها. تصورت القامة العملاقة، والصوت الأجش، والنظرة الآمرة، والشخصية التي تطول حكايات أبيها عنه بالإعجاب والخوف. ما تصورته يختلف عن الرجل الجالس إلى جانبها: القامة الضئيلة، والبشرة الطفولية، والصوت الهامس. هذا هو نابليون بونابرت!

اقتحمها شعور بأنها في بيت القائد العام للفرنسيين. هذا القصير بعينَيه الحادتَين، وبشرته البيضاء الشاحبة، والأنف الأقنى. يظل أبوها والمشايخ واقفين أمامه حتى يدعوهم إلى الجلوس. يتحدث أبوها عن التفصيلات المهمة، والتي لا لزوم لها، في لقاءات القائد العام والمشايخ. يسأل ويجيبون. يسألون ويجيب. يتبادلون نظرات الحيرة من ملاحظاته، أو

يشفقون على أنفسهم من سخطه وغضبه. ملامح الرجل أمامها تفيض بالود والانبساط، والحرص على كسب ودها.

حين لمحها في بيت البكري، أثارته العباءة الملتفة حول القامة الطويلة المشوقة، والعينان الصافيتان، الواسعتان، المكحولتان، من وراء النقاب، والرقة البادية في ظاهر يدها. شرد في الخيال والسحر، وتجسيد ما يقصر عنه التصور.

قال وهو يتأمل ارتباك ملامحها: لم أكن أظن أن هذا الجمال تخفيه خيمة سوداء.

واحتوى وجهها بين راحتيه: كنت أظن أن الجمال وطنه فرنسا.

ووشى صوته بملق: عرفت هنا أن الجمال وطنه مصر.

وهي تعاني ارتباكها: لست أجمل المصريات، لكننا لا نظهر إلا لرجالنا.

فاجأها بالسؤال: لك صديق؟

– لا أعرف هذا الأمر.

– هل تقبلين أن تكوني صديقتي؟

– هذه أول مرة أجلس فيها إلى رجل ليس أبي.

لاحظ صعوبة نطقها بالفرنسية: لغتك لا بأس بها.

نكست رأسها لتخفي خجلها من كلمات الإطراء: تعلمتها من فرنسي صديق لأبي.

– أثق أنك ستحسنين النطق بها في الأيام القادمة.

ماذا لو رآها أبوها في هذه اللحظة؟ لو أنه عرف بمجيئها إلى بيت الألفي، يستقبلها القائد العام. يعرض عليها صداقته، يستميلها بلغته وبالإشارة. ترد بما تعلمته من الفرنسية، وتلجأ — مثله — إلى التعبير باليدين والرأس وملامح الوجه؟

لو أن العلاقة بينهما انتهت إلى أفق تصورها: هل يوافق أبوها على زواجها من القائد العام، مثلما تزوجت المرأة من رشيد بالجنرال مينو؟ وهل يدخل دين الإسلام، أو يظل على دينه؟ وهل يأخذها إلى بلاده لو أنه لم يترك ملته؟ وإذا أظهر أبوها التردد أو الرفض: هل يجبره القائد العام على ابتلاع ما يعجز عن مضغه؟

مدَّ يده، وجذبها. أدار صدرها ناحيته، وضمها إليه.

لم تُبدِ ممانعة حين أحاط خصرها بساعديه.

أغمض عينيه. استغرق في ملمس البشرة الناعمة، وانطلاقات التصور، وارتعاشة الرغبة. يكره البدينات، والرائحة المنفرة. تذكر المثل التركي الذي قالته بولين: خذ المرأة البيضاء لعيونها، والمصرية للمتعة. عيون المصرية جميلة أيضًا. شرد في رؤى كونتها الشائعات والهمسات والرسائل الباريسية.

ماري روز جوزفين تخونه!

المجد الذي صنعه في القاهرة، داسته جوزفين في خيانتها لمن تزوجها بعد أعوام ترمل، عن زوج أعدم بالمقصلة. أضاف — في عقد الزواج — عامَين إلى عمره ليختصر السنوات الست التي تكبره بها. يقهره الغيظ والرغبة في الثأر. يدرك أن جوزفين تبادله الخيانة، سبقته إلى الخيانة. تمنت أن يسافر بعيدًا، ليحصل على ما تشتري به قصر «لاماليزون»، وتخلو فيه إلى عشيقها. لم يكن يعرف مدى خيانتها، حتى قدِم إلى مصر.

هي تخونه. لماذا؟ ومع من؟ وكيف؟

ذلك ما أبلغه به أرصاده عند قدومهم إلى مصر. اسمه شارل، لا قيمة له — مثله — في حياة الفرنسيين. هل تنتظر غنائم الحب؟ لو أنه في باريس، هل كان يسدد فواتير المتاجر التي تشتري منها ثيابها، وحليها، وما لا يتوقعه من طيشها وتقلباتها المزاجية؟ هل كان يقوى على السداد؟

كتب إلى أخيه جوزيف: أنا أعاني في بيتي الكثير من خيبة الأمل. انكشف لي ما كان مستورًا، ولم يبقَ لي في الدنيا من أخصه بما أعانيه سواك أيها العزيز. وكتب: أثق أنها ما أحبتني فقط. وكتب: لم تَعُد بيني وبينها رابطة من أي نوع! ما أستطيع أن أؤكده أنها لن تدخل بيتي! وكتب: من المؤكد أني سأطلق جوزفين، ولعلك تبحث لي عن بيت ريفي بالقرب من باريس، أو في بورجونيا، أعتكف فيه. أنا أريد قضاء الشتاء هناك، والخلو إلى نفسي. إنني متبرم من طبائع البشر، وفي حاجة إلى الوحدة والعزلة، والانتصارات تصيبني بالضجر، وينابيع الحماسة تجفُّ، والمجد بلا طعم في التاسعة والعشرين. لقد استنفدت كل شيء، ولم يَعُد أمامي إلا أن أصبح متوحدًا بالفعل.

قال للمملوك رستم وهو يشير إلى حجرة مغلقة: هذه حجرة نومي. أريدك أن تنام بالقرب من بابها. لا تترك أحدًا يدخلها.

فاجأ المملوك بتخليه — هذه الليلة — عن أمره. اقضِ وقتًا ممتعًا خارج البيت. حرص على أن تدخل زينب البيت، فلا يراها أحد. تغيب الأعين والآذان والأفواه التي قد تنقل ما تسمعه أو تراه. يدرك خطورة ما يحدث، عليه، وعلى الفتاة. لا صلة لمكانته برد الفعل القاسي، المتوقع.

الباب الرابع

فصل

– اجلسي.

فاجأتها دعوته. اعتادت الوقوف عند الباب، حتى يتناول مختار طعامه. عيناها مثبتتان على عينيه تحاول التقاط ما ينوي طلبه، لتبادر بإحضاره. لا تجلس لتناول طعامها قبل أن تدلق ماء الإبريق على يديه فوق الطست، ويجففهما بالفوطة. ربما يظهر عطفه لأن أباها يقاسمه الطعام.

لم يَعُد مختار — منذ انتقاله إلى بيت المعلم شيحة — زوجًا لتغريد فقط. هو الابن الأكبر للعجوز، والرأي الذي يلي ما يقضي به العجوز. لا تقتصر ملاحظاته على الحجرة المطلة على حارة الزير المعلق، لكنه يتحرك في مساحة البيت، يلاحظ، ويطلب، ويلتقي الضيوف.

جلست. تنقَّلت نظراتها بينهما، وإن أطالت تأمل مختار ببشرته السمراء، وابتسامته الطفولية، وأسنانه المفلجة، ولحيته القصيرة المدببة، والقميص ذي التيل الأزرق، والكمَّين الطويلَين.

قال مختار: هل تعرفين بيت الشيخ البكري؟

– له بيوت كثيرة … بيت البارودي بباب الخلق … بيت عبد الرحمن كتخدا القازدوغلي بحارة عابدين …

قاطعها: بيت الجودرية.

– الذي تقيم فيه أم زينب؟

– زينب هي التي تهمني.

في دهشة: ما شأنك بها؟ هل أزمعت العين أن تعلو على الحاجب؟

– أيُّ عين وأيُّ حاجب يا تعيسة. البنت على صلة بالفرنسيين.

بصقت في عبِّها: يا لهوي!

– ضعي لسانك في فمك، ولا تقولي هذا الكلام لنفسك.

– ماذا يعنينا إن كانت تعرف الفرنسيين أو لا تعرفهم؟

في نفاد صبر: وماذا يعنيك من أي شيء؟!

ثم في لهجة باترة: أريد أن تترددي على بيت الجودرية ولو كدلَّالة ... انقلي كل شيء إلى عينيك وعودي به.

– لمن؟

– لي طبعًا.

– إذا كانت تعرف الفرنسيين ... ماذا تفعلون لها؟

– ما نفعله مع أصدقاء الكفرة.

تدخل أبوها لأول مرة: نفذي ما يطلبه زوجك يا تغريد.

كشف انفراج شفتيه عن خلو فمه من الأسنان، ما عدا سنتين في مقدمة الفم.

ظل أبوها في أيامها، حتى بعد أن تزوجت. سبقها إخوة — ثلاثة ذكور، وثلاث إناث — إلى بيوت مستقلة. لما أنقذه مختار الرمادي من طعنة خنجر غادرة، زوَّجه تغريد، وأخلى لهما الطابق الثاني. تصعد وتهبط بين طابقَي البيت. لا تبدي الضيق، ولا تتذمر. تكنس، وتمسح، وتطهو الطعام، وتغسل الثياب، وتُمرِّض أباها، وتساعده على تناول طعامه، وتبديل ملابسه.

كانت تناقش زوجها فيما يطلبه، لكنها لا تقوى على مناقشة أبيها. الأخذ والرد وإبداء الملاحظات. ما يقرره لا تستطيع أن تبدي فيه رأيها. قوله أمر لا تملك إلا تلبيته. إذا اتجه بعينَيه ناحية تغريد، أدركت أنه يطلب فنجان القهوة السادة. لا يحصي — ولا تحصي — ما يرتشفه من فناجين القهوة السادة.

لم تكن تغريد تكلمه قبل أن يبادرها بالكلام. أملى احترامه على الجميع. مختار وحده، كان يقوى على مناقشته. لا أحد يرد له أمرًا. ما يعترض عليه لا يُطرح ثانية، وما يقضي به ينفذه الجميع دون مناقشة، أو حتى السؤال عما يشوب المعنى من غموض. يتقبَّلون انبساطه في الكلام بحذر. ربما غلبه الانفعال. فنسي ما أخذ به نفسه من الهدوء.

الباب الخارجي يفضي إلى المندرة الواسعة، تشي بالقدم. في وسطها فسقية مياه لا تعمل. من حولها أرائك خشبية عريضة، تهرأ فرشها. يجلس فيها أبوها ومختار إلى

زوارهما. السلم الجانبي المفضي إلى الطابق العلوي تآكلت أحجاره، وفي أسفله خزانة خشبية وصندوق. النشع يشكل تكوينات على السقف والجدران. النافذة الوحيدة، المطلة على المنور، تصدر ضوءًا شاحبًا.

اعتادت — وهي ترقب ما يدور في الحجرة المطلة على الخرابة الخلفية — إنصات الرجال إلى ملاحظات مختار. يلبون مطالبه بلا مناقشة. هي أوامر لا بد من تنفيذها. حتى أبوها يرفض أن يناقش الرجال أوامر مختار. من حقكم أن تختلفوا معه، ومن واجبكم أن تُخضعوا أفعالكم لتصوُّره.

أحست أن الموضوع خطير، ولا يحتمل نقاشًا. سكتت، واستعدت للمغامرة.

فصل

دخلت تغريد بيت الجودرية.

نزعت الملاءة والبرقع الشبيكة ذي القصبة الذهبية اللون. بدا أثره على أرنبة الأنف واضحًا.

رسَّاها مختار على ما يجب أن تفعله.

فضلت أن تدخل البيت تابعة، فلا تواجه سوء الظن. عرضت على حسنية الدلَّالة بضاعة تسوَّقها لها مختار من أسواق العصر وخان الخليلي والأزهر والحمزاوي وتحت الربع. وافقت حسنية أن ترافقها — صبية لا دلَّالة — إلى بيت البكري.

دخلت زينب.

تأملَتها: القامة الطويلة، الممشوقة، والشعر الفاحم، ضفرته في جديلة عقدتها فوق رأسها، والعينين الصافيتين، الواسعتين، المكحولتين، يعلوهما حاجبان خفيفان، والشفتين الرقيقتين، المكتنزتين، والبشرة المضخمة بالطيب. ترتدي قميص نوم واسعًا من القطن الأبيض، أزراره مقفولة حتى الرقبة، وتدس قدميها في مداس مغربي أصفر فاقع اللون.

وضعت البقجة الصغيرة على الأرض. قلبت زينب ما تناثر على المفرش: عقود من الزجاج، مناديل حريرية، خِمارات، أثواب، سراويل، مشغولات من الذهب والفضة، آنية فخار، صناديق مطعمة بالصدف.

– هذه أشياء من أسواق القاهرة.

– لا أقبل إلا ما يخصني به التجار.

وهي تومئ برأسها: إن كان عندك بضاعة من خارج البلاد هاتها لي.

قارنت بين ما ارتسم في ذهنها عن الحياة في بيت البكري، وما شاهدته. الستائر القطيفة تغطي النوافذ المطلة على الباحة الداخلية، والأبسطة والسجاجيد الأرمنية تكسو الأرض، وجلود الحيوان من أعماق أفريقيا، وحوامل القرآن من خشب الساج الهندي، والمرآة الهائلة تشغل معظم مساحة الجدار، والأرائك المزينة بالصدف، والخزائن، والصناديق المطعمة بالعاج، والدمقس الدمشقي، والحشايا اليمنية، والمساند، والموسلين الموصلي. وثمة سيدات البيت، والجواري، والخصيان، والخدم، وألوان الأطعمة والمشارب والعباءات البغدادية، وأقمشة الفسطاط، والأقمشة المطرزة بالقصب، والتحف والجواهر، واللآلئ الخليجية، وآلات الذهب والفضة.

قالت لأمها: لبِّس البوصة تبقى عروسة.

ومصمصت شفتيها: جمالهن بأدوات الزينة والملابس الأبهة.

قالت الأم: قولي هذا أمام أبيك فيقطع رقبتك!

استطردت دون أن تلتفت إلى ملاحظة أمها: لكن الست زينب — يشهد الله — جميلة ولا جميل إلا سيدنا النبي.

أعادت الحوار — بين زينب وبينها — على مختار الرمادي.

كان أبوها في جلسته على الكنبة، ينصت، ويكتفي بهز رأسه.

قال مختار: تريد أن تزغلل عين القائد العام ببضائع أجنبية.

قالت تغريد: هل هي على صلة بالقائد العام؟

– مصيبتك كثرة الأسئلة.

تدخل أبوها: نفذي كلام زوجك!

فصل

أعفاها مختار من انتقاء ما ترضى به زينب. عاد من أسواق القاهرة ببضائع مجلوبة من دمشق وحلب وطرابلس وبيروت وكريت وردوس وأزمير والبندقية ولشبونة وتريستا. اشترى لها أقمشة حريرية من سوق المغاربة وسوق الموسكي وخان الحمزاوي. حتى البقجة التي وضع فيها البضاعة اختارها مغايرة لما تحمله الدلَّالات.

عرضت على زينب بضائع راقية، تناسب ذوقها ومكانتها. اقتناها مختار من الموسكي. منسوجات قطنية وحريرية وكتانية وشيلان وجوخ. فردت بيديها أنواعًا نادرة من الحرير

والموسلين والمخمل والعباءات المرصعة بالترتر والحلي، وقوارير العطور النادرة، والأحقاق المطعمة بالصدف والعاج والأحجار الكريمة، وبضائع أخرى من الهند الشرقية وأوروبا والقسطنطينية. عرضت أمامها بضائع لم تُحسن ترديد أسمائها بعد نطق مختار: جوخ دوفينيه، حرائر ليون، منسوجات بروفانس.

فصل

قالت تغريد: تستطيع أن تدخل بيت البكري.

قال مختار الرمادي: أنا؟

ورمقها بنظرة متوجسة: كيف؟

– أوصت الست الكبيرة على صندوق لحاجياتها.

– هل ترضى بصناعتنا؟

ربتت صدره بيدها: أنت معلم قد الدنيا.

– السادة يريدون خشب الأرز، وبضاعتنا تختلف.

– من يعرف؟

– العين الخبيرة تتبين نوع قطعة الخشب إذا كانت في حجم عقلة الصباع.

عرَف عنه أنه يجيد التفرقة بين خشب الزان والأبنوس والسنط والنبق والنخيل واللبخ والجميز والتوت والكافور والساج. مجرد تقليبه قطعة خشب صغيرة، تدله على نوع الشجرة التي اقتطعت منها. كان يصنع الأسرَّة والخزائن والصناديق. ثم فرغ لصنع الصناديق، مزينة بالفضة والصدف لحفظ الملابس والمجوهرات والأشياء الثمانية. دكانه تحت الربع. يلاصق الدكان نجارون وصنادقية. ربما صنع قباقيب الحمام من الخشب الثمين المنقوش بالصدف، المحلى بالفضة. يبيعها لتجار خان الخليلي.

أنست إليها زينب.

لم تَعُد تفاصلها، ولا تحاسبها. تدفع لها أكثر مما تطلبه. تأتي لها بما تشتريه من الثياب والأقمشة والعطور وأدوات الزينة. لا تلحظ — أو تهمل الملاحظة — أن الأشياء الجميلة يشتريها مختار من أسواق القاهرة.

أطالت التفكير. اختلطت في داخلها مشاعر التوقع والقلق والخوف والإشفاق.

نفضت رأسها من السؤال: هل ينوي مختار أذية زينب البكرية؟

فصل

مضى مختار الرمادي من طولون على ظهر حماره. سار في سكة المصلى، من قنطرة السباع إلى يمين بركة الفيل، حتى ميدان الرميلة.

قبل أن يمضي إلى البرادعي في شارع تحت الربع، المتفرع من ميدان باب الخلق، لمح المكاري خليل نفادي أمام باب العزب، أسفل قلعة الجبل. جعل الباعة الجائلون من الصخور — وسط الميدان — دعامات لعرباتهم. يبيعون التبغ وقصب السكر والحديد الخردة.

قال المكاري خليل: لولا العباءة التي تغطي بها وجهك لظننتك خليل الرمادي!

ثم وهو يفسح الطريق لحمار يواصل صاحبه لكزه بساقيه: جئت لاقتناء ركوبة من سوق الحمير.

واتجه إليه بنظرة متسائلة: هل تبحث عن بردعة لحمارك؟

لاذا بظل القلعة.

قال خليل: أقايضك ... حمارك بحماري ... وتدفع الفرق.

– من يدفع الفرق؟

استطرد دون أن ينتظر إجابة منه: حمارك يعاني الهزال، بينما حماري صحته جيدة.

– لماذا تريد الاستغناء عنه؟

في تصعب: ضعفت حركته.

– لماذا لا تجعله حمار جر؟

– أنت المكاري لا أنا.

– لن يقوى على جر العربة إذا كانت الحمولة ثقيلة.

– المشاوير لا تنتهي منذ قدوم الفرنسيين داخل البلد وخارجها.

وأومأ برأسه ناحية ثلاثة جنود فرنسيين على ناصية الميدان: إنهم يزاحموننا على ركوب الحمير.

واغتصب ضحكة: يركبون الحمير لغير سبب إلا الجري بها في الشوارع.

قال مختار الرمادي: تأخذ ثلاثمائة بارة.

أردف لنظرة الاستياء في عيني المكاري: أن تبيعني حمارك بالثمن الذي ترضاه أفضل من أن تبيعه بالثمن الذي يعرض عليك، أو لا تحصل على شيء بالمرة!

ثم بلهجة محرضة: الفرنسيون ينزلون الناس من على حميرهم، ويبيعونها في الأسواق!

استجاب معظم المكارية لنداءات الفرنسيين. كل من كان عنده بغلة يذهب بها إلى قائم مقام ببركة الفيل، ويأخذ ثمنها. رافق النداءات تخويف من أن الذي يتقاعس عن تسليم دابته، تؤخذ منه غصبًا، يزيد عليها ثلاثمائة ريال فرنسي، ولا يحصل على شيء بالمرة.

استطرد الرمادي بنبرة فاهمة: إنهم لا يكتفون بالنزهة. ينقلون بريدهم على ظهورها.

قال المكاري: يضاعفون الأجر ... والبطر حرام.

قال مختار: نحن في حاجة إلى ما تسميه بطرًا. نريد وقتك.

– خيرًا.

مال برأسه ناحيته، وتحدث بكلمات هامسة.

وعلا صوته: يهمنا ألا يخذلك الحمار في المواقف الصعبة.

أعاد العبارة: المواقف الصعبة؟

غمز بعينه: ألا تواجه — أحيانًا — مواقف صعبة؟

تناول خليل نفادي من جيب السيالة علبة صفيح مثلثة. فتحها، وأخذ منها قطعة سوداء صغيرة. وضعها بين أضراسه، وأغلق فمه.

قال المعلم شيحة: لو أن صحتي تطاوعني، ما تركت هؤلاء الكلاب يؤذون الناس.

أزمع — في اللحظة التالية — أن يفعل ما يمليه حبه للمعلم، وواجبه نحو الغلابة والمنكسرين. تضايقه وجوههم التي تطالعه في كل الأماكن. حتى الأسواق علت فيها أصواتهم باللغة التي لا يعرفها. حتى المقاهي جلسوا فوقها يرتشفون القهوة. صار الرمادي — بذكائه وشخصيته — معلمًا لزملائه، ينصتون إلى أوامره، لا يوافقونه، ولا يخالفونه، أو يعترضونه. يقومون على إنفاذ ما يلقيه إليهم من الخطط، الأوامر كما يطلبها، ويبدون الحب والموافقة وعدم المخالفة. يوزعهم، يحدد لكل منهم المكان الذي يقف — أو يختبئ — فيه. يترصدون لجنود الفرنسيين، ومن يناصرهم، في الدروب والعطوف والخلاء. تعددت عملياتهم. تهاجم مخافر الجيش الفرنسي، وتقتل جنوده، وتدمر البيوت التي يقطن فيها قادته، وبيوت المتعاونين من المصريين والمماليك.

فكر في أن يتردد على خان أبو طاقية. يشتري لتغريد حلية ذهبية: قلادة، أو خلخال، أو سلسلة. له صداقات مع صاغة الخان. تذكَّر موعدًا في جامع محمد بك أبو الذهب، فاتجه إليه.

صعد السلم — مستندًا على درابزين الخرط — إلى الجامع، من الناحية المقابلة لجامع الأزهر. المئذنة ذات الطوابق الثلاثة، والشكل المربع، يعلوها خمسة رءوس تشبه الزلعة.

مضى إلى داخل الصحن المربع ذي الشبابيك الجصية، والمصنوعة من النحاس المتشابك، والزجاج الملون، والقبة المزينة بنقوش مذهبة، والمحراب المكسو بالرخام الملون والفسيفساء، والخردة المطعمة بالصدف، والقباب المحمولة على دعامات الحجر، والقبة الهائلة بنوافذها الحجرية، والأروقة المغطاة بالقباب الصغيرة، وأعمدة الرخام، والجدران المكسوة بالقيشاني المزخرف، وبلاطات الرخام والخزف.

كانوا عشرة يرتدون زي المجاورين. صنعوا ما يشبه الحدوة. تلاغطت أصواتهم بتلاوة القرآن. تبينوا مختار الرمادي. ردوا السلام، وعادوا إلى التلاوة.

تلفت — بتلقائية — فيما حوله. ثم سأل عن أبو المجد الهواري.

قال الشيخ المعتز بالله: إذا أردت أن تجده فهو في الكتبية.

وضم أطراف عباءته: إنه دودة كتب ... معظم وقته يقضيه في القراءة.

قال مختار: نحن في حاجة إلى قوة العقل مثلما نحتاج إلى القوة الجسدية.

ولاح في عينيه أمل: أثق أنه سيدلُّنا على ما لم نفطن إليه.

وقال في تنبه: هل نلتقي في الأزهر؟

قال الشيخ: أنت هنا كأنك في الأزهر تمامًا. بُني المسجد ليستوعب ما يزيد عن استيعاب مساحة الأزهر من المصلين.

سار بجوار الأزهر. خلَّف وراءه جامع محمد أبو الذهب والوكالات التجارية والدكاكين الصغيرة المتلاصقة؛ غالبيتها لنساخين وباعة مخطوطات. مال من اليسار إلى شارع الأزهر. مضى من ناحية شارع البيطار، وبيت جمال الدين الذهبي، وحوض السلطان قايتباي، إلى وكالة قايتباي. بناية هائلة، مقامة حول فناء واسع مربع، في وسطه حوض ماء، ومن حوله مخازن مسقوفة بالحجر، فلا تتعرض للحريق. الشبابيك والمشربيات من الخشب المخروط تغطي الواجهة. مساقط الهواء موزعة على الفناء والزوايا والأركان. في الطوابق العليا يمضي التجار أوقاتًا من أيامهم، أو يستضيفون الغرباء والوافدين.

تطلع من النفق الضخم أسفل الوكالة إلى المئذنة القصيرة الصاعدة من أعلى الأزهر، ثم عبر مسافة الشارع إلى داخل الجامع.

اختلط بمجاوري الأزهر من السوريين والأكراد والفرس وعرب الحجاز واليمن والهنود والقادمين من إفريقية. شاركهم تناول جراياتهم. تردد على أروقة الحرمين، الدكارنة، الشوام، الجازة، السليمانية، المغاربة، السنارية، الأتراك، البرقية، الجبرتية، اليمنية، الأكراد، الهنود، البغدادية، البرابرة. حتى رواق العميان تردد عليه، وكون صداقات مع مجاوريه.

يستند إلى الأعمدة. يطيل المكوث في رواق الصعايدة. عرف عنهم غلبة التعاطف والتكافل والمعاندة، وميلهم إلى الثأر، ورفض الذل والمهانة. إذا أدركه التعب، تمدد لصق الجدار، أو تحت أحد الأعمدة الهائلة في أركان الصحن، يضع البلغة تحت رأسه، وينام. يتفيأ ظلال الأنوار المبهرة، المتدلية من الأسقف، والمبثوثة في الأركان.

صار دائم التردد على سوق السلاح. تعددت زياراته للخلاء والصحراء، ولقاءاته بأرباب سيف وعمامة وحرفيين. وطد صلاته بالأغَوات الطواشية الذين استبقاهم الضباط الفرنسيون في خدمتهم. ينقلون له ما تراه أعينهم، وما يتناهى إلى أسماعهم. لا يفلتون شاردة ولا واردة، قد تفيده في رسم التصور الذي يبني عليه توقعاته، ويخطط لما ينبغي عمله.

كان يلجأ إلى الظلام والعطوف والأزقة. يتجه بنظره إلى الأمام لا يتلفت حتى لا يثير الريبة، يمشي لصق الجدران، يتجنب الشوارع الواسعة والميادين، يتوقع العين الراصدة والمطاردة والأذى. يتوقف عند أية وسوسة. ينصت لوقع أقدام تتبعه. يدرك أن الأعين تراقب الأماكن التي يتردد عليها. ليس كل المصريين المعلم شيحة، وليسوا كلهم خليل البكري.

طالَعه السقا حميدة أبو قطة أمام سبيل أبو الذهب، عند وكالة الغوري. اتجه ناحيته بما لا يشي أنه يعرفه. همس بكلمات قليلة، ثم واصل السير.

خاف الناس على ما يملكون من الحمير. أخفوها داخل الدور. فضل السقاءون أن يحملوا الماء على ظهورهم، بدلًا من أن تنقلها الحمير، فلا يصادرها جنود الفرنسيين.

السقا له دوره فيما يفعل. يتجول بالقربة المحمولة على ظهره في الشوارع التي لا تستطيع الجمال دخولها، أو السير فيها. ينقل الأخبار من جولاته في البيوت، ويوزع التعليمات على المتعاملين مع جماعة الرمادي. يخبره الرمادي بنَص ما يردده في آذان الناس، يهمس به كأنه الدعاء، أو التمتمة. يمضي في داخل العطوف والدروب والشوارع الضيقة. تبطئ خطواته في المواضع التي يشتد فيها الزحام. يقترب من الناس، أو يقتربون منه. يتلقون منه الرسالة، ويعدون أنفسهم للحدث المرتقب. لم يكن ما يخطه بالطباشير على جدران البيوت — كما يبدو — بعدد المرات التي حمل فيها قرب الماء إلى كل بيت. كان يحدد ساعة اللقاء، أو موعد الخروج لعمليةٍ ما. ربما جعل من دابته علامة التهيؤ لما سيجري. رنين جرس يضعه في عنق الدابة. يقترب الناس منه، أو ينادون عليه بما يبدو كأنه العفوية. يكتفون بملء الأزيار، ما يقتصر على الشبر الواحد، أو أقل، أو يتظاهرون

بطلب الشرب في كوب أو كوز. يكتفي السقا بذكر مكان اللقاء المرتقب، وموعده، ويمضي مخترقًا الأسواق والشوارع والأزقة.

فصل

قالت تغريد: زينب لا تذهب إلى بونابرت بمفردها. تصحبها امرأة فرنسية من حمام يلتقيان فيه.

قال مختار: ما اسمه؟ في القاهرة خمسة وأربعون حمامًا.

قال المعلم شيحة: حمامات الوجهاء قليلة.

قالت تغريد: لعل اسمه رزاق، أو عبد الرازق.

قال مختار: أظن أنه حمام مرزوق ... حمام يقتصر على نساء الأغنياء.

وهي تهز إصبعها: هو ذاك.

فصل

لمح خليل البكري إمارات الفزع في عينيها: ماذا حدث؟

وهي تنفخ بفمها: أف! البيوت بقع في مساحات الخلاء ... لكن الشوارع ضيقة، فلا تفي بمجرد مرور عربة يجرها جواد.

وهزت أصابعها في الفراغ: معظم الشوارع خصصت لسير البشر والبهائم ... لا تكاد توجد شوارع لعربات تجرها الجياد.

روت لأمها — في الليلة نفسها — عن الرجال الذين اعترضوا العربة أمام جامع بيبرس الخياط، القريب من البيت.

العربة مغطاة بالستائر الداكنة اللون. لا يرى المارة من بداخلها، وإن استطاع من بالداخل رؤية الطريق من زيق الستارة.

أطل شاب يحيط رأسه بتلفيعة من الصوف. لا تبين إلا عن عينين أيقنت أنها رأتهما من قبل.

واجه خوفها بلهجة صارمة: كما ترين ... نستطيع أن نعيد العربة إلى أبيك فارغة أو بها جثة.

قرب الخنجر من وجهها: لولا أنك امرأة لما ترددت في قتلك.

وأعاد الخنجر إلى غمده: سيكون القتل هو المتاح الوحيد لو أنك واصلت غيَّك!

أردف كالمتذكر: قولي لأبيك إنه ليس بريئًا من أفعالك.

ثم وهو يضغط على أسنانه: لا أحد في بيت الجودرية سيضمن حياته.

قالت الأم في فزعها: هل رأيت الرجل من قبل؟

– لم أرَ إلا عينيه. كأني رأيتهما من قبل.

– لماذا لم تخبري أباك؟ الخطر يهدده هو أيضًا ... يهددنا كلنا.

– لو قلت له فسيطلب أن ألزم البيت ... وهو ما لا أقوى عليه.

– لماذا؟

هزت كتفيها: لا أطيق حبسة البيت!

أَلِفت الحياة خارج بيت الجودرية، يتبعها ثلاثة أو أربعة من الطواشين. لم تتصور أن آخرين يتبعونها. يعرفون متى تخرج، وإلى أين.

ظلت الأم حبيسة هواجسها. حديث جلسة العشاء أمس، ما حدث للتاجر بشر العجيلي. هجم الحرافيش على داره، ونهبوها. أخذوا ما في الدار من النقود وحلي النساء والأشياء الثمينة. قيدوا الرجل، وحملوه بعيدًا عن الدار.

ظهرت جثته — بعد أربعة أيام — في النيل، بالقرب من روض الفرج، منتفخة، ومتغيرة اللون، فهي أقرب إلى الخضرة. أما الملامح فقد تشوهت تمامًا.

سرت شائعات بأن الرجل دفع حياته ثمنًا للتعاون مع الفرنسيين. وتحدثت البلَّانة شفاعات عن رجل فاجأ صبري فكيه مزملاتي سبيل الست بنبة ببركة الفيل، وهو يمضي في ظلمة قبو قرمز. نخَّه إلى الأرض كما ينخ الجمل. جرى على رقبته بخنجر، فانبثق الدم، وعلت حشرجة الموت. قالت إنه كان يتخفى وراء عمله ليتجسس على المصريين، على ما يعده أهل القاهرة من تدبيرات وأفعال لمقاومة الفرنسيين؛ لتنغيص عيشتهم، ودفعهم للعودة إلى بلادهم.

الباب الخامس

فصل

شدد القائد العام على قادة جنده، فلا بد من تأديب العصاة، والأخذ على أيديهم. يقدمون على أفعال الشر، ثم يلوذون — كعادة الأشقياء — بالزوايا والأركان. من يعود، ويندم، ويرجع عن غيه فإنه يلقى العفو عما فعل.

تعددت المعارك، واتسعت، ضد الإنجليز والعثمانيين والمماليك وأهل القاهرة والفلاحين والبدو. ما خطه على الأوراق اختلف عما التقى به في الواقع. مبعوث الإدارة «دتوت» ذكر في تقريره أن احتلال مصر سيكون سلميًّا لبلد أعزل. أكد على مزايا الاحتلال، ونفى احتمالات الخطر. تحدث التقرير عن المحاصيل الجديدة التي يمكن زراعتها، تشجير المقطم لتصبح القاهرة مدينة نظيفة، شق قناة من السويس إلى البحر المتوسط، سهولة استيطان آلاف الفرنسيين للزراعة والتجارة. الشائعات عن الطاعون والرمد مبالغة، ولعلها كاذبة. لم يحتمل القرار المناقشة ولا التأجيل، حين كتب الكونت دشوازيل-جوفييه «إن مصر على عتبة البيت، ولم تَعُد ملكًا للعثمانيين. الباشا لا شيء، ومصر ليست ملكًا لأحد.»

أمر بونابرت بفرض النظام في كل الحارات، ولا يتجول أي شخص في شوارع القاهرة وهو يحمل السلاح. صادر الجنود ما وصل إلى أيديهم من الجياد. اقتحموا بيت رضوان كاشف بباب الشعرية، يصحبهم ترجمان ومهندس. أظهرت زوجة الكاشف انزعاجها. كانت — قبل أيام — قد صالحت على نفسها وبيتها بألف وثلاثمائة ريال. حصلت منهم على ورقة ألصقتها على باب البيت، وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها، واطمأنت.

قال قائد الجنود: بلغ القائد العام أن عندك أسلحة وملابس للمماليك.

أهمل الضابط إنكار المرأة، وأمر جنوده بالتفتيش. طلعوا إلى مكان، وفتحوا مخبأة. وجدوا فيها ثيابًا داخلية وفرشًا وأمتعة ودراهم ودنانير وحجابًا من الذهب، نهبوها جميعًا. ووجدوا في أسفلها مخبأة أخرى، بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق البارود. أنزلوا المرأة ومعها جارية بيضاء وجماعة من الجواري السود. احتُجزن في قلعة الجبل، لم يرجعن إلى البيت إلا بعد أن دفع أهل المرأة عنها أربعة آلاف ريال أخرى.

التفت الضابط بالذهول إلى قول الجندي: أعرف أن ما فعلناه حيلة على نهب البيت.

أردف في لهجة هامسة: لماذا نفعل كل هذا؟

قال الضابط: نحن ننفذ الأوامر.

ودون أن يلتفت ناحيته: ليس من حق الجندي أن يناقش أوامر قادته.

فصل

فاجأ القائد العام الشيخ خليل البكري بالسؤال: لماذا يرفضنا المصريون؟

وارتسمت الحيرة على ملامحه: نحن لا نفعل إلا ما يفيدهم.

التفَّ الناس حول موكب القائد العام في أثناء عودته من بيت شيخ السادات. تعالت أصواتهم بكلمات لم يفهمها، وإن داخَله خوف حقيقي. لم يكن في كلمات الناس ما يخيف، ولا ما يحمل معنى الرفض. كانوا يقرءون الفاتحة، ثم يعيدون قراءتها بأصوات متآلفة، عالية.

بهرت الشيخ البكري شروح آلات علماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وعلمهم الدنيوي وتنظيم الديوان. هز رأسه، وأهمل ما قرأه للشيخ عبد الرحمن الجبرتي، حين دخل الفرنسيون القاهرة: «وهي أول سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، وما كان ربك يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.» تداخل في الفرنسيين، بينما فر النقيب عمر مكرم إلى بلاد الشام. اقتنع القائد العام بأن النقابة كانت لأسرته، وأنها اغتُصبت منه. أمر القائد العام، فقُلدت له النقابة، وحصل على وقفها وإيرادها، وانفرد بسكن البيت. صار له قبول عند الفرنسيين، وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذي كانوا نظَّموه لإجراء الأحكام بين المسلمين. أمسى وافر الحرمة، مسموع الكلمة، مقبول الشفاعة عندهم.

فصل

اخترق الشوارع الضيقة الملتوية القصيرة. تتقارب فيها شرفات الدور المتقابلة، وتزدحم بالمارة والدواب.

المسافرخانة، لها ثلاثة أبواب: اثنان في درب المسمط؛ أحدهما الباب العام، والثالث في درب الطبلاوي. الباب العام يؤدي إلى ردهة تفضي إلى صحن كبير مكشوف. على اليمين قاعة تضم إيوانين ودرقاعة، صفت فيها النارجيلات والطسوت والأباريق. في الجهة الغربية باب يفضي إلى سلم، بجواره باب آخر يؤدي إلى فضاء تحتل الحديقة جزءًا منه، تحيط به أربعة أروقة، كل رواق يضم خمس حجرات، وفي الزاوية حجرة مستقلة، منزوعة الباب، ومفروشة بالحصير لأداء الصلاة جماعة.

تلفت المعلم شيحة وراءه، يطمئن إلى غياب المتابعة، ثم دخل من الباب الجانبي الصغير المفضي إلى الحديقة.

قال الشيخ فضل بعرور مبلِّغ جامع الحاكم بلهجة متشككة: هل هناك مهدي آخر غير شيخ السادات؟

قال نصر السباعي التاجر بالموسكي: لو أن أحدهما كما يزعم، عليه أن يطرد الفرنسيين من بلادنا.

قال الشيخ بعرور: لكن العلماء يرون أن شيخ السادات هو المهدي المنتظر!

تقابل الرجال في جلستهم على الأرض، بينما توسط الشيخ المهدي الغرفة الواسعة، المغلقة.

كان يرتدي أخضر في أخضر: العمامة والعباءة والخف. حتى الشال على كتفه أخضر اللون.

فتح الشيخ غطاء الحلة الكبيرة. تصاعد بخار يشي بماء مغلي، مليء بخليط من الأعشاب. طقطقت الأعشاب، وومضت ببروق صغيرة.

طلب الشيخ من المريدين أن يقفوا فوق البخار منفرجي الساقين، وهو يغمغم بأدعية، ومجموعة من الرقَى، تُجبر القوى الخفية على طاعة الإنسان.

كان المعلم شيحة يتردد على مسجد النقيب بالحسينية. بناه الشيخ بدر المقدسي. يقضي أطول الأوقات في حضرة شيخ الصوفية. يسأل، ويناقش، وينهل من علمه. أولاه الشيخ ثقته، ومنحه بركته، وقربه إلى نفسه، وأعطاه خاتمًا من الجشمت الأزرق يضعه في إصبعه، فيشفيه من إدمان السكر.

اعتقد الناس في الشيخ الولاية والسلوك والجذب. تنافسوا في الاتصال به، والظفر بمرضاته، والإفادة من بركاته ومدده.

عُرف عن الشيخ استغراق العبادة، والبعد عن الدنيا، وصدق التنبؤات، وقراءة الطالع، والرجم بالغيب، وتوقع أحوال الجو. بالنظر إلى الشمس، أو القمر، أو حتى ارتفاع ضوء المصباح العادي أو انخفاضه في داخل البيت. إذا ألحت البومة في نعيقها عند حلول المساء، تتغير نفسه إن اختفت النجوم وراء سحب في السماء الصافية. يجاوز — في تخوفه — معتقد الناس من اختناق القمر بأيدي بنات الحور. قد يمتد الخطر، ويتسع. يصبح كيوم القيامة. نسب إليه من الأمور العظيمة ما لا يقوى عليه إلا أقطاب الأقطاب من مشايخ الصوفية. وكان يخالف — بأفعاله — نواميس الكون، ويعلم الغيب، ويأتي بما لا يتصوره إدراك البشر من الكرامات والمعجزات والخوارق. يحرك الجمادات، ويخاطب الجن، ويظهرهم لمن يريد أن يراهم، ويتصرف في الكون بالحياة والموت. إذا لمس أي شيء، حلت عليه البركة. يجد الجائع طعامًا، والمريض شفاءً، فإذا تحسس ما بين فخذي امرأة عاقر، جاءها الحمل بإذن الله. أكدت الروايات على أن الشيخ يمتلك سر استخلاص الذهب من أي شيء تلمسه يده، ويقدر على إبطال الرصاصات عندما تنطلق من الغدارات والبنادق، وإبطال القنابل وهي في الهواء. لم يكن له عمل ولا إيراد ولا يمد يده لأحد. عرف الناس أنه ينفق مما تجود به السماء، ما تخصه به السماء وتقصره عليه، فهو ينفق في هيئة من لا يخشى الفقر. يرتب للفقراء والعميان أكسية الصوف عند دخول الشتاء في كل سنة، ويولم لهم أسمطة القصاع الكبار المملوءة بالثريد المسقي بمرق اللحم والسمن.

أكثر المعلم شيحة من التردد على الجوامع في أوقات الصلاة، وزيارة الأضرحة، والمقامات، والمشاركة في مجالس الحضرة وحلقات الذكر. مال إلى تضوع البخور، والابتهالات، والأدعية، والوجد، والأناشيد المفعمة بالحنين، والشوق للإبحار إلى مدن السحر، والإنصات لأصداء الأغنيات البعيدة.

المعرفة هي المنارة الهادية إلى طريق الله. فتح القلوب هو سبيل الاستضاءة بنور الله. يقضي المتصوفة — غالب أوقاتهم — في تلاوة القرآن الكريم، والأوراد المنيفة، والأذكار، والتسابيح، والأدعية. يتخلل تلاوتهم أدعية بنصرة المسلمين على قوات الكفار.

للصوفية تأثيرها الغلاب، من خلال الطوائف الحرفية. ساعد انخراطها في الطرق الصوفية على الاشتراك في الانتفاضة التي بدأت تسري في أحياء القاهرة. طائفة الجزارين في حي الحسينية ارتبطت بالطريقة البيومية، تجار الفاكهة والحبوب في باب الشعرية ارتبطوا

بالطريقة الشعرانية، تجار الخضر من القلعة إلى الخليج ارتبطوا بالطريقة الرفاعية، وهكذا. يتخاطبون بالرموز والأحاجي وكلمات السر.

يشتري — ولو بالتظاهر — بعد صلاة العشاء — أنواع الفاكهة والتوابل، وألوان السكر والحلوى. تنتظر الزوجة صوت عصاه وهي تصطدم بدرجات السلم عند قدومه إلى البيت. ترنو إلى باب الحجرة، تتوقع قامته الطويلة، المتلئة، ورأسه التي أطل شعرها الأبيض من تحت الطربوش الأحمر، المحاط بطيات القماش الأبيض، ووجهه الأسمر، وشاربه المتهدل على جانبي فمه، والسحجة في زاوية الجبهة اليمنى إلى ما وراء الأذن، والقفطان المتدلي إلى كاحل القدمين، ودائرة البياض حول الوجه، والعباءة الملقاة على الكتف بدلًا من وضعها على الرأس، والخف المغربي دس فيه قدميه.

كان مختار الرمادي يختلف مع المعلم شيحة في النظرة إلى الشيخ المهدي قطب الصوفية. يثق المعلم شيحة في الشيخ، ويؤمن ببركاته، بينما مختار الرمادي سيئ الاعتقاد بالشيخ، والمتصوفة، وأهل الحال والطريق. لم يصدق أن الشيخ عدل عن انشغاله بأمور لا تتصل بواقع الناس، ولا أمور حياتهم. اكتفى — لأعوام طويلة — بالتأليف في الطهارة والنجاسة والتفنن في الأوراد والأذكار التي تفقد الإنسان وعيه. كان رأي مختار الرمادي أن القوة وسيلة طرد الفرنسيين، وليس رفع الأعلام والبيارق والدعوات وحلقات الذكر.

أيقن أهل الحي — ذات يوم — أنه لا أحد يقف في وجه المعلم شيحة، وأنه يستطيع أن يفعل كل شيء.

اكتفى من التعلم بسنوات الكتَّاب. تردد — في صباه — على حرافيش الخلاء والمناطق البعيدة. أخضعوه — بإرادته — لدروس في خوض المعارك، واستخدام العصا والمطواة والشومة والبلطة، وتفادي الضربات، وإجادة التصويب دون أن يقتل خصمه. أجاد ركوب الجواد بدون لجام ولا سرج. عرف الطريق إلى البوظ والخمارات وبيوت الليل. تحدى فتوات الأحياء والسراة والرياح والصواعق والأمطار والشمس الحارقة والخلاء والآفاق الغامضة. أغار على أحياء القاهرة الثمانية. خاض معارك مع الفتوات والحرافيش والزعر دون أن يستطيع أحدهم هزيمته، أو الوقوف أمام ضرباته. يتحول إلى عفريت من الجن، يتقافز، يطير، تتوالى ضرباته بما لا يقوى على رده أحد. أخضع الجميع لسطوته. لم يَعُد يقدر على مُنازلته، أو التصدي له إنس ولا جان، ولا يستطيع مخلوق أن يجاهر بعداوته له. حتى جنود الوالي العثماني ترصَّد لهم، ونالهم بأذاه، وإن لم يغادر بيته القريب من جامع طولون. تفاخر به أبناء طولون وقلعة الكبش وحارة الروم وسوق السلاح وعطفة نافع وحارة الشماشرجي.

جعل مختار الرمادي أقرب معاونيه، وأنصت إلى ملاحظاته ونصائحه. علمه فنون القتال، والصبر على الأذى، وحيل اصطياد الخصوم. وإجادة استخدام الشومة، والمطواة، والسكين، وضرب الروسية: فاجِئ خصمك قبل أن يفاجئك. إذا شككت في نيته، فلا تدعه يشغلك بالكلام. هو يرخي الحبل قبل أن يلفه حول عنقك. اقذف بحبلك دون تردد. اضرب، واضرب. لا تترك له فرصة التفكير ولا التدبير، ولا حتى التقاط الأنفاس. من يُهزم فإنه يُقتل، أو يلزم بيته.

حين أعلن المعلم السبيلي فتوة بركة الفيل تحديه — في أيام رقاد المعلم شيحة بالمرض — مضى إليه مختار الرمادي. اشتبكا في معركة بالجنازير والمطاوي، حتى سقط السبيلي غارقًا في دمه. وعاد الرمادي إلى طولون دون أن يصيبه خدش.

أزعجت المعلم شيحة فكرة أنه سيموت يومًا. يفلح فتوة في قتله، ينام فلا يصحو، يعاني الحشرجات التي تسبق طلوع الروح.

انضمام المعلم شيحة إلى الطريقة الرفاعية بدَّل حياته: مال إلى الدعة والاطمئنان والركون. تخلى عن كل ما يؤذي الناس، واقتصرت حياته ما بين البيت والمساجد والزوايا ومقامات أولياء الله الصالحين. عالمه المآذن والقباب والمقامات والأضرحة وحلقات الذكر والأروقة والخانات والتكايا والزوايا، وقراءة الأوراد والتعاويذ والصلوات. يحرص على زيارة المشهد الحسيني، ومقام رئيسة الديوان، وأضرحة الإمام الشافعي وعمر بن الفارض ومحمد الحنفي والشعراني، وسائر المزارات المباركة. يقرأ الفاتحة، ويلامس المقصورة، ينشغل بالمدارات والمقامات والأحوال، وينشد روح الله، ويطلب النصفة والمدد. صارح زوجته بأنه — لولا حاجتها إليه — كان يحقق أمنية تشغله بالذهاب إلى الحجاز، والمجاورة قرب الكعبة، فلا يعود. بلغ إشفاقه على المرأة حد تمنيه أن تموت قبله، فلا تحزن على موته.

صار — منذ دخل الفرنسيون القاهرة — يُمضي جزءًا من يومه في سوق السلاح، ويقضي الفترة، من صلاة العصر إلى صلاة العشاء، في جامع السيدة فاطمة النبوية، ويشارك في حضرة الرفاعية بالسيدة نفيسة، حتى مطلع الفجر، وإن ظل على عشقه للتحطيب، ورقص الخيل، وسماع عازف الربابة.

هل يطيل الله في عمره ليشهد خروج الفرنسيين؟

الباب السادس

فصل

سأل القائد العام عن المولد النبوي: لماذا لا يحتفل به العلماء؟

حاول أن يترسم خطى الإسكندر المقدوني بالإفادة من النوازع الدينية لدى المصريين. أعد — قبل نزول الحملة إلى الأرض المصرية — منشورًا باللغة العربية، أمَّن فيه المصريين على دينهم. وعمل على النفاذ إلى المشاعر الدينية، ومحاولة استمالتها، أعلن أنه — وجيشه — يحترمون الإسلام والمسلمين، وكرم الفقهاء والعلماء، واستضافهم، وحضر مجالسهم، وغيرها من المظاهر التي تسعى إلى استمالة مشاعر المصريين الدينية. أوصى رواته — صار له رواة ينتشرون في الأسواق والمقاهي والخلوات — أن يتحدثوا عن ظهور النبي للسلطان الكبير — يقصدون بونابرت — وقوله له: اجهر بإيمانك في انتظار هذه العلامة، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك. التمس السلطان الكبير من الرسول — في الرواية — مهلة سنة يُعِد فيها جيشه، فمنحها له النبي. تعهد بونابرت بأن يبني جامعًا أكبر من الأزهر، وأن يحرض ضباطه وجنوده على اعتناق الإسلام. وقال رواته إنه يخلو إلى تلاوة القرآن معظم الليل، يطهر به نفسه، ويمسح عنها أدران ما سبق.

قال نابليون لكبار قواده: لقد حقق الإسكندر بعبوره الصحراء في زحف لم يستغرق غير أسبوعين من الإسكندرية إلى معبد آمون بسيوة، واستقبال الكهنة له بوصفه ابن جوبيتر؛ من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد، أكثر مما كان يحققه لو بنى عشرين حصنًا، وعزز جيشه بمائة ألف من المقاتلين المقدونيين. وقال نابليون: ليس الذي يعجبني في الإسكندر الأكبر حملاته الحربية، بل أساليبه السياسية. كان محقًّا حين أمر بقتل بارمينون

الذي عارض — بحماقته — تخلى الإسكندر عن التقاليد الإغريقية. وكان منتهى حسن السياسة منه أن يذهب لزيارة معبد آمون، فهو بهذا فتح مصر. ولو أنني مكثت في الشرق فسأقيم على الأرجح دولة تفوق دولة الإسكندر بذهابي إلى مكة للحج. فتح مصر معناه إقامة مملكة شرقية عظيمة، يسكنها أربعون أو خمسون ألف بيت من الأوروبيين، يدخلون إليها صنائعهم وشرائعهم وإداراتهم. يصبح من الميسور القضاء على سلطة الإنكليز في الهند. قال: لكي ندمر إنجلترا، فلا بد أن نستولي على مصر.

أشار عليه الكيماوي برتوله باصطحاب جماعة من العلماء: أنت تريد مملكة أوروبية، فانقل إليها تقدم الأوروبيين.

أحضر معه اثنين من علماء الفلك، وأربعة من علماء الهندسة، وعالمًا في الجيولوجيا، وعالمًا في الكيمياء، وثلاثة من علماء الطبيعة، وستة من المهندسين المدنيين. نزع — في طولون — زيه المدني، وارتدى زي القائد العام.

بدت الرحلة طويلة من طولون إلى الإسكندرية. شغلها مع أركان حربه من الضباط، ومع العلماء، في أحاديث متشابكة وممتدة، في السياسة والاقتصاد والحكم والدين والخطط الحربية والكيمياء والفيزياء. سأل عن الأرض: هل هي الكوكب الوحيد الذي تسكنه الكائنات؟ وكم عمر الأرض؟ وهل يُعَد حلم يوسف في التوراة تأكيدًا لتفسير الأحلام؟ وما الحدود التي ينبغي أن توضع بين حق الملكية، وممارسات السرقة والاغتصاب؟

اتجه إلى العلماء بأسئلة عن البلد الذي تتجه إليه الحملة: هل توجد طريقة لتنقية مياه النيل من الأوساخ؟ هل من الأفضل إقامة طواحين ماء في مصر؟ ما هي المواد المحلية التي تصلح لتصنيع البارود؟ ما وسائل تحسين النظام القضائي والتعليمي؟ هل يمكن زراعة العنب؟ ما إمكانية حفر آبار في الصحراء؟ هل يمكن تزويد قلعة الجبل بالمياه؟ ما مدى إمكانية الإفادة من كومات القمامة المحيطة بالقاهرة؟ ما إمكانية بناء مرصد، ومقياس على النيل أكثر ملاءمة من مقياس الروضة؟

ربما علت الحناجر بالأغنيات العاطفية، والحماسية، والمعبرة عن الحنين.

اعتذر الشيخ البكري بتوقف الأحوال، وتعطل الأمور، وعدم المصروف. طرقع إصبعيه بما يعني افتقاد المال. لم يُشِر إلى رفض أهل البلد أن يقيموا احتفالاتهم في وجود الفرنسيين.

قال القائد العام: لا بد من ذلك.

وضع في يد الشيخ ثلاثمائة ريال فرنسي، لتغطية احتياجات المولد من المصابيح والمشاعل والفوانيس، وقال: لا بد من الاحتفال بهذه المناسبة!

أمر القائد العام بتعاليق وأحبال وقناديل. اجتمع الفرنسيون يوم المولد. لعبوا الميادين، وضربوا الطبول والدبادب، وضربوا الطبلخانة الكبيرة أمام بيت البكري. تواصل ضربها طول النهار والليل بالبركة تحت البيت. ثم عملوا حرَّاقة نفوط مختلفة وصواريخ، تصعد في الجو.

طاف الخدم بأكواب القهوة وماء الورد والشربات والزنجبيل.

وثق خليل البكري مصيره بالفرنسيين منذ اجتمعوا يوم المولد. ارتدى الفروة بتأييدهم، وتقلد نقابة الأشراف في حضور أعضاء الديوان. نودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف، فليرفعها إلى النقيب. ظل على حبه لملامسة الأشياء الجميلة، والجواري، والغلمان، والطعام، والأغنيات، والموسيقى، وإنشاد الشعر، ورائحة البخور، وبريق الرخام، والأثاث الفاخر، والزهور، والحدائق المنسقة، وبكل ما يدخل المتعة إلى النفس. حرص — في أثناء زيارات القائد العام إلى بيته — أن يُحدث في نفسه انطباعًا جديدًا. يقدم الأبهة، والمأكولات الفاخرة والأطباق المزينة بالأحجار الكريمة والنقوش المحفورة والنقوش البارزة، والأكواب الذهبية والفضية، وستائر الجدران والشرفات المطرزة بالذهب والأرجوان، والموسيقى، والغناء ورقصات الدراويش وأولاد عبد السلام. خصص لبونابرت أريكة في صدر القاعة الكبيرة، واستقبله — مرة — وهو يرتدي عباءة مزدانة بالأحجار الكريمة.

تقدم علماء الأزهر وشيوخ الصوفية والمريدون والمسلحون بالشوم إلى قصر القائد العام. يملئُون — في نجمة الفجر — ساحة ميدان الأزبكية. يؤدي الجند التحية، بأمر من القائد العام. يستقبلهم الخدم بالتوقير والتجلة. يقدمون الشربات والقهوة. يدخل القائد العام، فيتوسط مجلس العلماء. يسأل، ويجيب، ويبذل الود. ربما سأل عن معنى عبارة، أو آية، في القرآن الكريم. يظهر تقديره للإسلام وللرسول الكريم. أهمل بونابرت قول ديبوي — يدرك نفوره من المصريين، وأنهم لا أكثر من مخبولين: نحن بهذا الاحتفال نخدع المصريين بتعلقنا المزعوم بديانتهم التي لا يؤمن بها سيدي الجنرال ولا أحد من ضباطه أو جنوده.

قال القائد العام: هذا الشعب تسيطر عليه الأفكار الدينية منذ أقدم عصوره.

وجرى بسيفه على الأرض في دوائر: لما جعل الإسكندر كاهنة معبد آمون تستقبله بوصفه ابن جوبيتر … كان يعي عقلية المصريين.

استمال المشايخ البكري والشرقاوي والمهدي والصاوي والسادات. ضمهم إلى الديوان، فيقودون الناس إلى ما يريده. أعلن أن سلوك المشايخ جاء على خير ما كان ينبغي. تطلع إلى استمالة بقية العلماء.

ظل القائد العام في وقفته على باب الردهة الواسعة، حتى انصرف آخر العلماء. يتوقع أنهم ينصرفون إلى الجوامع والمساجد والزوايا وأماكن التجمعات، وأنهم جاءوا ليبقوا. العكس ما كان يحدث. تهمس التحذيرات والأوامر بأن تظل النفوس صاحية، حتى يحين أجل من فرضوا أنفسهم على المصريين. ينصحون بما ينبغي فعله. تمتد الهمسات إلى أحياء القاهرة، فتزيد النار اشتعالًا.

خالف البكري — للمرة الأولى — أفعال العلماء. أَذِن للفرنسيين فأضاءوا منزله بالأنوار الساطعة، مثلما أضاءوا بيت القائد العام وبيت الجنرال ديبوي. تقدم مواكب الصوفية، تحمل البيارق والأعلام. تنشد المدائح والابتهالات والأدعية. توسط حلقة الذكر إلى صلاة العشاء. تقدم — بعد الصلاة — إلى الجودرية، ضباط الفرنسيين وحملة المشاعل وفرقة الموسيقى. أحرق النفط، وأطلقت الصواريخ، وأطلقت المدافع طلقاتها أمام البيت. ودعا قائد الفرنسيين إلى طعام العشاء. حيا القائد نقيب الأشراف، وأهداه عباءة من الفراء. شجعه على قبولها حضور أعضاء الديوان والمشايخ المصرية من الثغور والبلاد والوجاقات ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيين. حتى العلماء الذين ضمهم ساري عسكر في الديوان الخصوصي وكبار رجال الحرف وأعيان التجار في الديوان العمومي. حركتهم المسايرة، فلا تطأ أقدام الجند — ثانية — ساحة الأزهر.

ارتفعت البيارق — ذات اللونين الأحمر والأخضر — فوق السواري في ميدان الأزبكية، وأقيمت السرادقات في أرجاء الميدان، وسارت مواكب الصوفية ومنشدي المدائح النبوية والأدعية والابتهالات، وحلقات الذكر، وحملة المشاعل والبيارق، وعازفي الآلات، ونافخي الأبواق، وركب ضاربو الطبول الجمال، واعتلى بقية العازفين ظهور الحمير. تقدمت الموكب فرق الموسيقى التركية والفرنسية. جرى التوسع في الأضواء. أضيئت البيوت والجوامع والشوارع والأسواق، وواجهات البيوت والمحال. تأخذ المصابيح المعلقة هيئة أشجار صنوبر ضخمة، أو شكل أهرامات متتالية. ازدانت القوارب الشراعية بالأعلام، وانطلقت الشهب والألعاب النارية والصواريخ والمفرقعات. حتى الباعة زينوا عرباتهم بالأوراق الملونة، احتفل الناس في الطرقات. نُثر الآلاف من قطع المديني، تنافس على التقاطها الفقراء من أهل القاهرة، وألقى التاجر أحمد بسطاويسي للناس صرة مليئة بالذهب، نذرًا لشفاء أصغر أبنائه من مرض تهدده بالموت. مُدت الأسمطة الزاخرة بأشهى أنواع المأكولات، وأنواع الحلوى، وتعالت أصوات الآلات الموسيقية، وتكلمت أحاديث المقاهي والخلوات عن خضوع القائد العام لعملية الختان، واستبدال العمامة بالقبعة، وإعلان اتباعه دين الإسلام، وتلاوة سور — أو آيات — من القرآن كل يوم.

مع ذلك، فإنه لم يحضر الاحتفال سوى عدد قليل من المتسكعين بقلوب منكسرة، ونفوس ضعيفة، واعتكف أغلب الناس في بيوتهم، في نوع من الاحتجاج والرفض. احتفلوا داخل البيوت، والإحسان بالصدقات، وتلاوة القرآن في الجوامع والمساجد والزوايا، حتى مطلع الفجر.

عاد الشيخ الشرقاوي إلى بيته يعاني الحيرة لارتداء نابليون العمامة والجبة والقفطان، تردد — من قبل — على بيوت كبار المشايخ، جلس القرفصاء، تناول الطعام بيديه، مثل المشايخ تمامًا.

فصل

مد المعلم شيحة قدمه، تتحسس البلغة أسفل الكنبة. قال وهو ينقر الأرض بعصاه في توتر واضح: مختار يغطس ويقب ولا يخبرني أين ذهب.

ووشى تساؤله رنة غضب: هل أصبح يملك من الأسرار ما يخفيه عني؟!

سكت المعلم شيحة. أصاخ سمعه لما يدور في الخارج وهو يشير بالصمت. تنهد، وأسند رأسه إلى الكنبة.

التقط من العلبة الصفيح الصغيرة بطرف إصبعه. قرَّب الإصبعين من فتحتي أنفه. شم بقوة، وعطس: دوريات الفرنسيين كثيرة هذه الأيام.

قالت الأم: صرنا نتحسر على أيام المماليك.

وتنهدت: ما نعانيه على أيدي الفرنسيين أشد ظلمًا وقسوة!

قال المعلم شيحة: لا أسوأ من الفرنسيين إلا المماليك.

تؤذيه سيرة المماليك، يحملهم كل ما يعانيه المصريون. عانى — مثلما عانى أبناء القاهرة — من معارك المماليك. يتطاير الرصاص، ويتعالى قصف المدافع، وترتطم الشوم والعصي، وتنقب البيوت، ويحصل القتل والحرق والنهب على أبناء البلد من المصريين. يمتد الضرب إلى الحارات والعطوف والدروب والأزقة.

شغلوا بفرض الإتاوات والضرائب، وبالعز، والأبهة، والقصور الهائلة، والعبيد، والخصيان، واقتناء الجواري، والجياد، والذهب، والجواهر، والثياب الفخمة، والسيوف المذهبة لا تخرج من أغمدتها إلا لتطيح برقاب أبناء البلد. يركضون بجيادهم في الطرقات، يصدمون الرجل والمرأة، ويدوسون على الصبي. لا يعبئُون بالتحذيرات ولا الصرخات، ويواصلون شق الزحام بسنابك خيلهم.

زادت الأعوام التي أمضاها مراد وإبراهيم في حكم مصر على العشرين عامًا. عانى فيها المصريون صراعاتهما واقتتالهما. أثمرت عداواتهما عداوة المصريين لهما، عداوة ترفض، وتسخط، وتأمل في تغير الحال. اضطربت الأمور، وتعددت وسائل العداء. أهمل المعلم شيحة معاركه مع فتوات الأحياء. قادهم إلى عراك المماليك. تدافعوا لإنهاء دولة الأمراء.

دخل في خناقة مع العدائين المسلحين بالشوم في اندفاعهم لإخلاء الطريق أمام المملوك التركي. آلمت الضربة كتفه، فاختطفها، وأعادها إلى جسد الرجل ضربة في صدره. أطاح بمهارة جعلت زعامته لفتوات القاهرة موضع اطمئنان. بكل الشوم والهراوات التي تدافعت لأذيته. أقبل على صيحاته من الشوارع الجانبية والعطوف والأزقة، عشرات الرجال يحملون العصي والجريد والهراوات. لكز المملوك جواده، ففر بحياته. تبعه من لم تلحقه ضربات الرجال!

حين نهب مماليك حسين بك الشفت بيوتًا في الحسينية، شارك أهل القاهرة احتجاجهم وهياجهم على أمراء المماليك. اتجهوا إلى الجامع الأزهر، يتبعهم أعداد كبيرة من العامة والجعيدية، بأيديهم نبابيت ومساوق. أغلقوا أبواب الجوامع، وطالبوا بضرورة إقرار العدل، والشرع، ورفع الظلم والجور، وإبطال الحوادث والمكوسات المبتدعة. صعد منهم طائفة أعلى المنارات، يصيحون، ويدقون الطبول.

قال الشيخ الدردير لمن لجئوا إليه في الأزهر: في غد نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة، وأركب معكم، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا، ونموت شهداء، أو ينصرنا الله عليهم.

والتمعت عيناه بالغضب: قدم المماليك إلى بلادنا خدمًا ... ثم تحولوا — بضعف الحكام — إلى سلطة أقوى من سلطة الحكم.

أدرك المماليك خطورة الأمر، وأن الإمساك بطرف الخيط لا بد أن يؤدي إلى نهايته، نهاية ليست مأمونة بحال. تعهدوا بإحضار كل ما أخذه أعوان حسين بك الشفت من منهوبات. كان واحدًا من الناس الذين تجمعوا حول الأمراء الثلاثة: حسين بك الشفت، ومراد بك، وإبراهيم بك.

قال الشفت لإبراهيم أمام الجميع: أنت تنهب، ومراد بك ينهب ... وأنا أنهب كذلك!

تعددت مرات صعوده إلى مآذن الأزهر للدعاء على الأمراء، ودفع المصريين للتمرد عليهم. لو أن أمراء المماليك عنوا بالتحري عن قوات الفرنسيين، ببصاصيهم الذين ينكدون على الناس أيامهم؟ من أين تأتي؟ وإلى أين تتجه؟ وما عددها؟ وماذا تحمل من سلاح؟

وهل يمكن تعويقها؟ لو أن ذلك حدث، ربما تغير الحال، وما صارت القاهرة ثمرة ناضجة سقطت — بسهولة — في يد الفرنسيين.

لم تداخله شفقة لرؤية أسرى المماليك، بعد أن أطلق بونابرت سراحهم. دخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر، وعليهم أسمال رثة. أكلوا من صدقات الفقراء المجاورين، وتكففوا المارة. روح التثبيط امتدت منهم إلى أهل مصر، منذ بدأ المماليك — عقب نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية — في نقل حريمهم وأولادهم وثرواتهم في بيوت الأتباع والخدم خارج القاهرة. تملكته فورة من الانفعال وهو يصرخ في المماليك الفارين: يا ظالمين. أنتم سبب هذه الداهية!

تنبه الفرنسيون إلى السراديب والأنفاق التي شقها المصريون تحت الدور والشوارع والميادين. حفر الرجال سراديب تربط قلعة الجبل بالشوارع والأزقة التي تطل عليها، وبين الميادين والشوارع والخلاء في داخل القاهرة. يتخفى فيها المسلحون. يصعدون في الموضع المحدد، في الوقت المحدد. يباغتون جنود الفرنسيين بالغدارات والشوم والسكاكين. لحظات، ويختفون، كأنما تحيا تحت الأرض مدينة أخرى، لا شأن لها بالغزو الذي يحتل القاهرة.

حفر الرجال سردابًا من البيت المطل على النيل. ينتهي على بعد أمتار في عمق النهر. يقيدون الجندي الفرنسي المقتول، مع أثقال. يظل في موضعه تحت الماء حتى يتهرأ، أو يأكله السمك.

أبلغ الأرصاد بونابرت بشخص المخطط، والمدبر، لكل ما يجري من عمليات ضد الفرنسيين.

قال القائد العام للجنرال مينو: يبدو أن المصريين يحسنون لغة العثمانيين وحدها.

وشاعت في صوته نبرة غضب: عليك أن تقطع كل يوم خمس أو ست رءوس في شوارع القاهرة.

فصل

لاحظ تحديقها المتأمل من خصاص المشربية المطلة على الجودرية. أطل من فوق كتفها. راعه المستند إلى البناية المقابلة في الظلمة الشفيفة. لم يميز ملامحه، وإن فطن إلى معنى الوقفة. شهق للعينين الخضراوين والشعر الأشقر.

– لكنك ابنة شيخ.

واجهته بعينين متحديتَين: لم تَعُد الأمور كما كانت.

وأومأت بلهجة متواطئة: الفرنسيون الآن منا، ولم تَعُد الصداقة جريمة.

ألزمها القعود في حجرتها، لا تتركها — ثلاث ساعات — حتى لقضاء الحاجة. لا ترى أحدًا، ولا يراها أحد. ركبها جني أو شيطان. لا نجاة لها إلا في شم البخور الذي أجادت زمردة إعداده، وضوَّعت به مساحة الحجرة.

كأنه أطلق شرارة تصرفاتها التالية. لم تَعُد تكتفي بالوقفة وراء خصاص المشربية. تهز كتفيها، وتنزل إلى الطريق. رأت الفرنسيين في الطرقات، يصحبهم نساؤهم، حاسرات الوجوه، يرتدين الفساتين والمناديل الملونة، ويركبن الخيل — وبخها أبوها على ركوبها! — والحمير، ويضحكن على السجية، ويداعبن المكارية. تفضل ساعة قدوم الليل. تساعدها الظلمة والثوب الذي يخفي الوجه والجسد، تترك البيت من الباب المطل على الشارع الخلفي. يسبقها الطواشي، وتتبعها الخادمة..

سئمت التنقل بين السرير في حجرة النوم، والتمدد على السرير مقابل المرآة التي توسطت الجدار، وامتدت من الأرض إلى قرب المنتصف، والاتكاء على الوسادة في القاعة المطلة على الفناء. تلبي الجواري والخادمات ما تطلبه. لا تعرف عما يدور في العالم الخارجي إلا ما يتناهى إلى سمعها من مناقشات زوار أبيها. جعل أبوها في بيت الأزبكية أنواع الولائم والعزائم والضيافات والسماعات والآلات وجمعيات الحظ والفرجة. تترامى إليها أصداء ذلك كله — من خلال روايات الأغَوات والخدم والعبيد — في حجرتها العلوية المطلة على الحديقة الخلفية، يترامى الأفق من ورائها في الأرض الفضاء.

القائد العام يحبها، وهي تحب القائد العام. القائد العام رجل، وهي فتاة، أنثى. التقطت أذناها — وهي تدخل الحمام — حديثًا عن الخصومة بين أبيها وأغا الإنكشارية على غلام من المماليك. له حسن — في الهمسات الضاحكة — يفوق ما لدى النساء. لجأ أبوها إلى المسئول الفرنسي بوسليج. قضى له أن يحتفظ بالغلام لقاء تنازله للأغا عن عقار قيم.

ما الصح؟ وما الخطأ؟

لاحظت الأم كثرة خروجها للحمام، أو لزيارة صديقة لها. خمنت أنها تخرج لسبب لا تصارحها به، وتخفيه. توقعت — من يوم أبلغتها زينب بمفاجأة الرجل بالقرب من جامع بيبرس الخياط — أن يقدم الزعر على أذى ابنتها، يقتلونها، أو يخطفونها لابتزاز أبيها، أو حتى يؤذونها بالضرب.

فصل

أذهله اقتحام زينب مجلس زواره. عدد كبير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من أوقاف عبد الرحمن كتخدا والمرضى بالمارستان المنصوري. الأحاديث تشرق وتغرب، وإن لم تجاوز ما ألفته المجالس. علت الشكوى — فجأة — من توقف تسليم الرواتب والجرايات من الخبز، لتوقف إيرادات الأوقاف.

قال شاب يهز عمامته بيده: نحن نلجأ إلى أهل الشرع للتوسط عند الفرنسيين كي يزيلوا ما نزل بنا من إجحاف.

قال رجل تشي نظرته الثابتة بغياب بصره: قُطعت رواتبنا وخبزنا لأن الأوقاف تعطل إيرادها، واستولى على إيرادها الغير.

قال البكري: أعدكم بأن أتحدث عن مشكلتكم في اجتماع الديوان.

وأشار ناحية الباب: عودوا الآن إلى بيوتكم!

قال الشاب: نحن نعتب على بعض أعضاء الديوان أن أولاد البلد خدم عند الفرنسيين؟

غاظها وهي تنظر — من خلال الباب الموارب — إلى الرجال المجتمعين في القاعة، تعلو أصواتهم بالأسئلة والأجوبة والمناقشات والشكوى. تمنت لو أنها نصحتهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويحكموا العقل، ويرعوا مصلحة الناس.

تركت تغريد في جلستها على الأرض، أمامها بضائع تنتظر انتقائها: حلي وأساور وأحجار نفيسة وماسات وعقود لؤلؤ وتيجان وصناديق صغيرة مطعمة بالصدف والعاج، ومفارش، وروائح عنبر ولبان وجاوي ومر وبخور وعود وصندل.

سحبت عقدًا من الفيروز. لفته حول عنقها. تأملته في المرآة الهائلة أوسط الحجرة. نزعت البرقع والملاءة، وأخلت قدميها من القبقاب، وتربعت. تُوائِم لون حبات العقد مع بشرتها السمراء، وشعرها الأسود الطويل، وأنفها الصغير، وشفتيها الرقيقتين.

تنهدت، وأعادت العقد إلى موضعه.

أنست لها زينب. قالت لها وهي تغادر البيت ذات عصر: لماذا لا تقيمين هنا؟

غالبت ارتباكها: أنا أزوركم دائمًا!

– أقصد أن تقيمي في الجودرية.

– وبيتي؟

– هنا بيتك.

– وزوجي … وأبي … وأمي؟

– تستطيعون التزاور.

أردفت: ماذا يعمل زوجك؟

– نجار.

– وأبوك؟

– أقعدته الشيخوخة.

– سأعطيك ما ينفق على أسرتك.

– مختار يرفض.

– من مختار؟

– زوجي.

– سأكلم أبي ليلحقه بالعمل في بيت الأزبكية.

اكتفت — دلالة الشكر — بإيماءة خفيفة من رأسها.

اتجهت زينب إلى الرجال بملامح غاضبة: الفرنسيون لا يمارسون السخرة ... إنهم يعطون لكل واحد زيادة عن أجرته.

وأزاحت خصلة شعر متهدلة على جبهتها: لا تنسوا أن المماليك كانوا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه دون ثمن.

تدخل خليل البكري بالقول مهونًا: العدو الذي لا نستطيع رده، علينا أن نكسب صداقته!

قال الشاب: هل أكسب صداقة عدوي؟!

– هذه هي الطريقة الوحيدة لاتقاء أذاه.

هل تؤدي تصرفات زينب إلى أن يفقد استعادته لمشيخة البكرية، بعد أن فقدها — قبل مجيء الفرنسيين — لما فيه من الرعونة، وارتكابه أمورًا غير لائقة.

هذا هو الاتهام الذي دفع المشيخة ثمنًا له.

هل يتكرر الفقد؟!

فصل

أعاد النظر ليستوثق من المرأة الواقفة. لم يجد فيها ذلك الشيء الذي اجتذبه إليها، حين رآها للمرة الأولى.

كانت ترتدي ثوبًا مفتوح الصدر والظهر، كما ترتدي الفرنسيات. رصعته باللؤلؤ والذهب. أسدلت شعرها الأسود الطويل، على كتفيها، ورسمت شفتيها بعناية.

النقاب الذي غطت به وجهها، لا تبين منه إلا العينان، هو الذي اجتذبه إليها، هو الذي فتنه.

العينان!

لو أنهما كانتا بلا نقاب، ربما لم تتحرك مشاعره، فيطلب لقاءها.

قال: لماذا استبدلت بملابسك هذه الملابس؟

قالت زينب وهي تمسح ثوبها: هذه ملابس باريسية.

أردفت لخيبة الأمل في ملامحه: خياطتي هي ست السلطان الكبير.

– من؟

– ست السلطان الكبير.

ثم وهي تتفادى اتجاه عينيه: الآنسة بولين نوريس.

اغتصب ضحكة: مسكينة! إنها منافستك عندي.

لمح المرأة وابنتها قبل أن تدفعه إلى حيث يجلس في الحجرة الملاصقة. لم يكن الفضول — وحده — هو الدافع لأن يحاول التعرف على من في ضيافتها. في بيتها المطل على شارع بين القصرين. اصطنع السؤال عما لم يتحدد في ذهنه. مجرد أن يوارب الباب. يردفه بنطق اسمها. تركزت نظرته في الفتاة الصغيرة. رفعت النقاب إلى ما فوق جبينها، تتابع الحديث بين بولين والمرأة الجالسة إلى جوارها. أسدلت المرأة العباءة السوداء والنقاب. بدت كخيمة صغيرة. خمن أنها أم الفتاة. انطبعت الصورة في ذهنه: الشعر الفاحم، العينان الصافيتان، المكحولتان، الأنف الصغير، الشفتان الرقيقتان كورقتَي وردة.

اتجه إليها بنظرة غاضبة: هل كلمتك عما يلائمني؟

وعلا صوته: لماذا تتشبهين بالفرنسيات؟

زمت شفتيها المرتجفتين، تغالب البكاء: أردت أن أرضيك.

وهو يشير إلى الباب: ما يرضيني أن تعودي إلى بيتك.

أضاف إلى تغيُّر مشاعره، وما يطلبه، رؤيته لبولين فوريه وهو يشهد — مع أركان حربه — احتفال تطيير البالون. قبل العصر، تجمَّع الناس، والكثير من الفرنسيين، وغيرهم من أبناء الجاليات الأجنبية، يتطلعون لرؤية تلك العجيبة. عبارة عن قماش على هيئة «الأوبة» على عمود قائم، ملون أبيض وأحمر وأزرق. عمودها مركب على مثل دائرة الفريسال، وفي وسطه فتيل. السكرجة مصلوبة بأسلاك حديد منها إلى الدائرة، ومشدودة ببكر وحبال. أطراف الحبال في أيدي رجال يقفون على أسطح البيوت القريبة. بعد العصر

بساعة، أوقدوا الفتيلة. صعد دخانها إلى القماش، وملأه. انتفخ. صار مثل الكرة التي ارتفعت، بينما الحبال تجذبها. ثم قطعت الحبال، فصعدت إلى الجو مع الهواء. طارت لحظات، ثم سقطت على الأرض. انكسف طبع الفرنسيين لسقوطها. لم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب يجلس فيها من يقصدون السفر إلى البلاد البعيدة. ظهر أنها مثل الطيارات التي يعملها الفراشون في المواسم والأفراح.

ما حدث لم يشغله عن إعادة التحديق في الشعر الذهبي الناعم، ينسدل على كتفيها كعباءة، والعينين الزرقاوين تحت الأهداب السود الطويلة. في مساء اليوم نفسه، زار بونابرت مطعم «التيفولي» بالأزبكية. رآها هناك. ظل يرنو إليها بنظرة ثابتة، دون أن تشغله ردود الأفعال المحتملة.

عرَف — من سؤاله عن أحوالها — أنها الابنة غير الشرعية لأب مجهول وطاهية اسمها «بليل». يناديها أصدقاؤها «بيليلوت». تعمل بائعة للقبعات. سماها «كليوباترة». زوجها الملازم فوريه من ضباط الحملة. لم يأذن لخاصة أصدقائه — ممن أدركوا السر — أن يناقشوا قراره بإعادة المواطن فوريه الملازم بفرقة الفرسان الثانية والعشرين إلى باريس.

قال هنري برتران: أنت لم تحاول حتى أن تبعث معه رسائل ذات قيمة.

قال نابليون: أنا القائد الأعلى، ومن حقي أن أصدر أوامري، وعلى ضباطي تنفيذ الأوامر.

وهو صغير، أنكرت عليه أمه تعجله. ادعت أنه لم ينتظر حتى تصل إلى فراشها، فولدته فوق سجادة. أهمل حتى عودة الملازم فوريه المفاجئ إلى القاهرة، دون أن يستكمل مأموريته في باريس. وقعت سفينة البريد «شاسير» في أسر السفينة البريطانية «ليون». اكتفى القبطان الإنجليزي بقسم الملازم فوريه ألا يقاتل ضد البريطانيين تحت أي ظرف.

فصل

هل حولته خيانة جوزفين إلى سلطان شرقي، يجد اللذة في مضاجعة النساء وإيذائهن؟ هل أصبح السلطان الكبير بالفعل؟

يدين لها بتجاوز أسوار الخجل، والقسوة التي كانت تقابله بها أمه. امتدحت صفاته العسكرية. أومأت بالمعنى فغابت المعاناة لما صارحها بحبه. تزوجا. كانت تكبره بسبعة أعوام. لم يتردد في أن يضيف إلى عمره سنة ونصف السنة، ولا أن يخصم من عمرها أربعة أعوام، وأن تتولى حضانة ابنيها أيوجين وأورتنس من زوجها الجنرال دي هارنيه. أعدمته الثورة الفرنسية في العام تسعة وأربعين وسبعمائة وألف.

من بين ثلاثمائة زوجة استطعن التسلل إلى الناقلات، والقدوم إلى مصر مع أزواجهن، وجد في السيدة فوريه ما يلبي احتياجات ذكورته. زوجها ملازم صغير السن والمكانة، لا أهمية له، لم يملك إلا الندم على أنه ساعدها على المجيء إلى الإسكندرية.

سكت عن عرض بيليلوت أن يطلق جوزفين، وتطلب الطلاق من زوجها، ويتزوجان، ربما تنجب له الطفل الذي عجزت جوزفين عن إنجابه. جوزفين هي المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته. حتى مدام فوريه علاقته بها أقرب إلى النزوة العابرة. اطمأن إلى التعبير الذي قاله بأن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الفرد، لكن التوق إلى لحظات الانتشاء يمور في داخله، فلا يقوى على احتماله. كأن ملامحه الظاهرة غطاء لِقدر يغلي. ليس لديَّ وقت أضيعه. كلمات أعاد ترديدها لنفسه، وتوهم أنه صدقها، لكن الرغبات المشتعلة تصاعدت، وعلا — في داخله — قرع الطبول. لم يَعُد الحب — كما قال هو ذات يوم — شغل العاطل، وراحة المحارب، ومهلكة الحاكم.

فصل

منذ أقام الصلات مع الفرنسيين وهو يحاذر في سيره، وفي ركوبه وتحركاته ولقاءاته. حتى الزيارات التي يقوم بها إلى مشيخة البكرية، تباعدت، ثم دعا أتباعه إلى التردد على بيته، يعرفهم بالسحنة والاسم، فلن يتسلل من يخشى أذاه.

يمضي إلى بيت الجودرية راكبًا، أو سائرًا على قدميه. يخترق الشوارع الضيقة، والمتقاطعة، والمتشابكة. يسلم يده بآلية لمن يريدون تقبيلها. يلمح وجوهًا لم يسبق له رؤيتها، ولا تعرَّف إليها. يغيب الود عن نظراتها، ويلوح الشر، وترهقه بالمطاردة. تطارده أشباح تملأ الشوارع والدروب. تقف على الأبواب وداخل البيوت المهجورة والخرائب، تطل من الأسطح والنوافذ، ومن وراء المشربيات. ينتفض لعطسة، أو نحنحة، أو وقع أقدام من خلفه. يواصل السير دون أن يتلفت، وإن توقع — والخوف يقتله — من يتبعه. يتوقع — في لحظةٍ ما — ضربة مفاجئة، أو نداءً باسمه، أو ما لا يدريه، أو يحدد قسماته. تترامى إليه في غرفة نومه المغلقة داخل البيت ترددات الأنفاس، شهيقها وزفيرها. يصحو — منتفضًا — على بنادق صوبت بين عينيه. يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

هل كان يتصور أن زينب في بيت أمها، وهي — في غفلة منه — تنزل إلى الطريق الخالية من أهل البلاد؟

كتم ضيقه لهمسة المعلم مروان عكاشة أنه رأى زينب مع ضابط فرنسي في الأزبكية، معهما نساء يرتدين الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح

الكشميري والمزركشات المصبوغة. لم يتصور أن زينب تُقدِم على ذلك الفعل. ربما كانت امرأة تشبهها.

زينب؟

تنزل إلى الطريق. لا تتكلم عن وجهتها، ولا أين كانت حين تعود. تكتفي — عند السؤال — بالغمغمة التي تعني السخط، ثم تمضي إلى حجرتها، أو إلى بيته في أول الجودرية. أحبت الآفاق المنطلقة، ومصادقة الضباط الفرنسيين. تهمل وقوع بيت أبيها في قلب الأزبكية، حيث تمضي أوقات غيابها عن الجودرية. لا تعبأ حتى إن رآها أحد من إخوتها، أو أزواج أخواتها، أو الأقارب والمعارف.

خرج عن نفسه حين غابت عن الجودرية يومًا وليلة. قالت وهي تنظر في ثقوب المشربية إلى من لم يتبينه في الجودرية: شاهدت احتفالات الفرنسيين بعيد قيام الجمهورية في بلادهم.

– ما شأنك بأعياد الفرنسيين؟

– إنهم يحتفلون بأعيادنا.

استطردت في نبرة تلميز: وأنت تشاركهم الاحتفالات.

ورفت على شفتيها ابتسامة غامضة: لن نخاصم من جاءوا ليبقوا!

أفنى العمر في تحصيل الدنيا، وتنظيم العز، وشراء المماليك والجواري والخصيان والعبيد، واقتناء كل ما يضيف إلى وجاهة حياته … هل تضيع هذه الحمقاء كل ما جنى؟

قال وهو يربت رأسه: هذه العمامة الخضراء لها ثمنها … وثمنها هو أن يحترمها من يضعها فوق رأسه!

ثم هو يرمقها بنظرة استياء: الانتساب إلى الأشراف قيمة في ذاته فلا تُضيعي كل شيء!

الباب السابع

فصل

قدِم الشيخ المهدي إلى القاهرة، تسبقه دعوته وهزيمته للفرنسيين في أكثر من معركة.

كان للمهدي هيبة واضحة. يضع على رأسه عمامة ناصعة البياض، ويرتدي جبة من اللون نفسه. زُين حوافها بالذهب، وتدلت على الكتفين شراريب من الدمقس الأحمر، ويركب جوادًا عربيًّا يسر النظر. وكان طعامه يقتصر على لبن في قصعة، يغمس فيها أصابعه، ويمررها على شفتيه.

قيل إنه ليس من أهل مصر، وأن اسمه ليس المهدي. هو أحد أمراء المغرب الأقصى، واسمه مولاي محمد. قدِم إلى مصر، ضمن جماعة من أهل المغرب، للحض على الجهاد، ومحاربة الفرنسيين. دافعهم الغيرة الدينية. بثَّ أعوانه ومريديه في المدن والقرى، ينتظرون الإشارة لتلبيتها.

عُرف عنه الصلاح والورع وسعة العلم في أمور الدين، والعمل بأوامر الله ونواهيه. لجأ إليه الناس في قضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم. يقضي بينهم، ويُفتي في الدعاوى التي يضعونها بين يديه. وكان يتحرى أحوال الفقراء والمعوزين، وتطييب خواطرهم وإسعادهم. شمل الكثير من المحتاجين بعطفه وبره. وكان يصف للمرضى ما يهديه علمه من الأعشاب الجبلية، والمراهم التركيب، والعنبر الهندي.

أظهر الزهد عما في أيدي مريديه ومحبيه. تستغرقه رياضاته ومجاهداته، ويقبل على النوافل والسنن كأنها فرائض، ويتجنب المكروهات كأنها محرمات، ويحرص على الاجتماع بأتباعه ومريديه، والاتصال بسائر الناس، مهما تتفاوت ظروفهم ومكانتهم.

اعتقد الكثير من الناس في كراماته، وأحسن رؤساء الطوائف الظن بولايته. نفى ما أشيع عن قدرته على إجادة لغات الملائكة والجن والطير والوحوش والأسماك والحشرات

والهوام، وتسخير الجان، وممارسة السحر، وكتابة الوصفات والأحجبة، وإن انتشر بين الناس أنه عمر وقته كله بالذكر، وترجل في مراتب الأسماء الإلهية. بدأ بالكشف، وإحصاء علوم الشريعة وعلوم الحقيقة، وانتهى بمرتبة التجليات الإلهية. لا يأكل ولا يشرب، ويحصل على قوته من السماء، وراجت الأقوال والروايات عن كراماته ومعجزاته وخوارقه؛ فالنظرة الرافضة إلى الفرنسيين تحيلهم ترابًا، وقذائف المدافع ترتد إلى من يطلقها، وطلقات الرصاص لا تخترق أجساد من يشملهم بدعواته وعنايته.

لم يَعُد من ملجأ إلا القوة والثورة.

التفَّ عليه أهل البلاد، وطائفة من المغاربة، وجماعة من الحجازيين. قتلوا — في دمنهور — ستين جنديًّا فرنسيًّا من الفيلق الملاحي. غنموا مدفعًا، وضعوه على مركبة تجرها الثيران، وتمكنوا — بواسطته — من إلحاق الخسائر الفادحة بالفرنسيين، حتى ردوهم إلى الرحمانية. انتقم الفرنسيون من أهل دمنهور لاتباعهم أوامر المهدي، وتمردهم على جند القائد العام. ألقى أعوان المهدي بأنفسهم أمام مدافع الفرنسيين. يقينهم أن إلقاء المهدي للتراب على قنابل الفرنسيين يبطل مفعولها. حصدت المدافع المئات، لكنهم — باليقين الذي سيطر عليهم — شكلوا ما يشبه الموجات. زاد عدد القتلى على الألف من مريدي المهدي وأعوانه. أخضع عسكر الفرنسيين المدينة للقتل والنهب والسلب والتدمير، حتى احترقت عن آخرها. اختفت من الوجود تمامًا. هي مجرد أطلال، وبقايا حرائق، وبشر ميتون. غاب الرجل في الصحراء، يتبعه عدد من مريديه، يرافقهم الإيمان بكرامات المهدي، وقدرته العجيبة على فعل ما يشبه السحر.

تخلى مختار الرمادي عن حذره. عرض أن يكون — ومن أقنعهم بالخروج على الفرنسيين — ضمن الرجال الذين يُعِدهم للثورة ضد الفرنسيين. عهد بهم الشيخ المهدي إلى معلم مغربي، تعلموا على يديه أساليب مراقبة الفرنسيين، ومتابعتهم، ونصب الكمائن، والإغارات، والانقضاض، والطعن بالمُدى، والسكاكين، والخنق.

عرض المعلم عيد حنكش التاجر بالغورية، أن يحصل أهل المناطق حول القلعة على ما يحتاجون إليه من قطع الحجارة. يقذفون بها قوات الفرنسيين. تشغلهم عن هجوم أهل القاهرة بالبنادق والطبنجات والسيوف والرماح والبلط والهراوات والعصي. عمله في المحجر خلف القلعة. يدق الحجارة البيضاء بالأزميل والقادوم، يحيل قطعها الهائلة إلى قطع مستطيلة، صغيرة، يصقلها، يُعِدها للبناء.

قال الشيخ المهدي: هل يضربوننا بالبمب والرصاص، فنرد عليهم بالحجارة؟

قال عيد حنكش: مجرد وسيلة لإلهائهم، فيتمكن الرجال من مهاجمتهم.

– إن كان هذا فلا بأس!

فصل

خرج مختار الرمادي — للمرة الأولى — وراء السيدَين المهدي وبدر المقدسي — مع فتوات الحسينية، وأعداد من المغاربة، وخلق من العامة، في نيتهم الجهاد ضد الفرنسيين. رددوا الهتاف: «نصر الله دين الإسلام، ولعن الكفرة اللئام.»

لم تكن المعركة — هذه المرة — بين المماليك، فيغلق الرمادي دكانه لأنها لا تعنيه. الأمر اختلف. لا مماليك في المعركة، ولا زعيم حقيقي لقيادة الثورة. ثمة أولاد ناس وتجار وزعر وحرافيش وجعيدية وأوباش، خرجوا للثورة ضد الفرنسيين. جاءت الأخبار بأن المماليك انكسروا على البر الغربي، وأن العثمانية هربوا على البر الشرقي. لم يصدق الناس أن المماليك والعثمانية يهزمون بهذه السهولة. غلبت الحيرة الناس لساعات. ثم تناثرت الهمسات بأنه على أهل القاهرة أن يحاربوا الفرنسيين، وإن لم يَعُد يرافقهم مماليك ولا عثمانية.

ابتدع الفرنسيون ديوانًا جديدًا، وشرعوا في وضع قانون جديد لأمور البيع والشراء والمعاملات والمواريث والزواج وغيرها من الأمور الشرعية والفقهية. توفروا على دراسة كيفية إدارة المقاطعات والأراضي والعقارات والبيوت والخانات والدكاكين والطواحين والوكالات والربط. طالبوا الناس بتقديم ما يثبت امتلاكهم لما بحوزتهم من دُورٍ وأراضٍ. فرضوا الضرائب على الدُّور والعقارات والدكاكين والخانات والربط. حتى الأضرحة والمقابر لم تسلم من الضرائب الباهظة. أوشكت الضرائب أن تشمل ترددات الأنفاس. سبق ذلك قرارات أخرى، مست الناس في صميم حياتهم: إزالة البوابات التي تفصل أحياء المدينة بعضها عن بعض، إلزام أصحاب الدكاكين بإضاءة مصابيح الشوارع — أمام دكاكينهم — طيلة الليل، هدم الكثير من البيوت ومسجد لتسهيل استحكامات القلعة، وضع المزيد من المدافع أعلى القلعة وتصويب اتجاهاتها نحو المدينة.

تحدَّث الناس عن خيانة أعضاء الديوان، وأنهم لا يستحقون المكانة التي خصهم الناس بها.

اشتد الأمر على أهل القاهرة مما وقَّع عليهم من ألوان الظلم والقهر والإذلال، جمعوا أمرهم على محاربة الفرنسيين. ضجَّ الناس لكثرة الضرائب والمكوس والأحكام التي يصعب قبولها. التقت أعداد منهم، وتناجَوا فيما آلت إليه الأحوال. وافقهم على ما ينتوون مشايخ

المساجد والزوايا. انشغل الناس بتدبر ما يجري، وما يبين في الأفق من توقعات قاسية. نزل شيخ صغير السن من الأزهر. راح ينادي في الشوارع والعطوف والدروب المحيطة: كل مؤمن موحد بالله، عليه بجامع الأزهر، اليوم لا بد لنا من أن نغازي مع الكفار!

علت الصيحات: لقد آن أوان القيام على هؤلاء اللئام؛ فهذا وقت الانتصار للإسلام. دعا المؤذنون الناس — في أوقات الصلاة الخمس — إلى الثورة على الفرنسيين!

تجمع الناس في الطرقات والميادين، وعلى أبواب الجوامع والمساجد. التحم العلماء والمجاورين وأئمة المساجد والمؤذنين والصوفية والدراويش وأرباب الحرف والطوائف. شارك أوساط الناس وميسورو الحال. انضم إليهم الحرافيش والأوباش والجعيدية والزعر والغوغاء والهباشة. حملوا السيوف والمساوق والبيارق الخضراء والنبابيت وعصي الحديد. حمل بعض أفراد طوائف الحرفيين ما يتصل بحرفهم من أدوات: الفئوس والمطارق والبلط والمعاول والقواديم.

حضر السيد بدر المقدسي وصحبته فتوات الحسينية، وأهل العطوف البرانية ومغاربة الفحامين وباب الوزير والحطابة والحبَّالة والرميلة وعرب اليسار وابن طولون ووكالة قاضي البهار.

مضَوا إلى أحياء وسط البلد: البندقانيين وباب زويلة والحمزاوي وباب الشعرية وباب الفتوح وباب النصر والبرقية والرميلة. نصبوا الخيام، ولاذوا بالجوامع والمساجد والزوايا، وجمعوا النقود التي ينفقون منها على أمور حياتهم. أغلق أبواب دكاكينه تجار الطرابيش واللبد والأبسطة والأكلمة وقلوع المراكب وتطريز الحرير والجوخ والموسلين والأواني الزجاجية والأحذية وسروج الخيل وصناعة الحصر والقفف وتبييض النحاس والحدادة والخراطة وأعمال العاج والكهرمان، وأغلقت المقاهي أبوابها. اعتزموا الجهاد، وانطلقوا إليه متحزبين.

تفرقوا في معظم أخطاط القاهرة، من باب الفتوح وباب النصر والبرقية، إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما جاورها. وضعوا حصونًا خشبية ومتاريس على نواصي الشوارع وتقاطعاتها. حفروا الخنادق. كوَّموا أكياس التراب وقطع الحجارة فبدت كالجدران الصلدة. أقدموا على فك المصاطب أمام البيوت والدكاكين. جعلوا منها متاريس في مداخل الشوارع والحواري والأزقة، لإعاقة جند الفرنسيين عند تحريك مدافعهم في داخل المدينة.

وقف خلف كل متراس عدد من الرجال، يحملون كل ما استطاعوا تخزينه من السلاح وآلات الحرب. نبشوا الأرض، وطلعوا بمدافع مدفونة فيها. صنعوا المدافع في موضع أقامه

عثمان كتخدا في بيت قائد أغا بخط الخرنفش، وصنعوا البنادق والمسدسات. خلعوا أسوار المساجد والجوامع. صهروها في المسابك، وأنشئُوا معامل للبارود. خلت القاهرة من كل صنف جديد. عُني أرباب الحرف بإقامة المتاريس، وصنع الحدادون القنابل، وعملوا على تشغيل المدافع. صنعوا من كل ما وصلت إليه أيديهم من قطع الحديد، خناجر وفئوس وبلط ومطارق وغدارات وسيوف ودبابيس وخناجر وقطع حديد وأحجار. ثبتوا الأرصاد في النوافذ، وأعلى الأسطح، وداخل الدكاكين والمقاهي، وفوق المآذن، وأعلى تلال الدراسة.

تهيئوا للمقاومة. انضم إليهم فتوات الحسينية والمئات من التجار وأرباب الحرف. اختلطت أصوات المؤذنين بهتافات الناس، تدعو إلى الجهاد. قدِم الأهالي من طريق الأهرام وبلبيس. نفَذوا من أبواب زويلة والفتوح والنصر والبرقية والقنطرة والفرج وسعادة والباب المحروق والباب الجديد وباب الشعرية. تزايدوا فبلغوا أكثر من خمسة عشر ألفًا، تجمعوا في داخل الأزهر، وفي المناطق المحيطة. تكوَّنت لجنة لإدارة الثورة، اتَّخذت الجامع الأزهر مقرًّا لها، واختارت من الشيخ السادات قائدًا للثورة.

دفع كبار المياسير والتجار نفقات الأكل والشرب. قدِمت جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والمؤن. تتقدَّمهم الصيحة: نصر الله دين الإسلام.

ساروا إلى بيوت وجهاء وقضاة وأعضاء في الديوان. رجموا الواجهات بالحجارة والطوب. هاجموا دار مصطفى الكاشف بالدرب الأحمر. كان يسكنها الجنرال المهندس كافارلي قائد الوحدة الهندسية، والبعثة العلمية الفرنسية. حطموا ما كان يستعمله من أدوات ومعدات وأجهزة علمية. نهبوا ما في الدار، وقتلوا المهندسين ترفينون ودوفال.

حاصروا بيت قاضي العسكر، ولم يُمكِّنوه من الهروب. خاف القاضي العاقبة، وأغلق أبواب البيت، وأوقف حجابه. انهال الرجال عليه بالحجارة والطوب حتى قضى. امتد الهرج والمرج إلى باب الفتوح وباب النصر والبرقية وباب زويلة وباب النصر والبندقانيين. اتجهت الجموع ناحية بيت القاضي. هو المكان الذي يلتقي فيه من يريدون التعبير عن أحوالهم، ويجأرون بمطالبهم. أجبروا القاضي على ركوب جواده ليسبقهم إلى مقر الأركان العامة. أشفق القاضي على نفسه من الزحام الشديد. همَّ بالعودة إلى بيته، لكن المتمردين أسقطوه عن الجواد، بعد أن ضربوه بالحجارة والعصي.

واصلوا السير إلى الأزهر والمشهد الحسيني. موضع آخر اعتادت المسيرات الغاضبة أن تلتقي فيه. علت الأصوات بتلاوة الفاتحة، وبالقَسم أن ينصر الله دين الإسلام.

قتل المتمردون من وقع في أيديهم من عملاء الفرنسيين، أو من عملوا في خدمتهم. هجم على بيت البكري بالأزبكية أعداد من أهل القاهرة. نهبوا البيت، وعرُّوا خليل البكري

عن ثيابه، واقتادوه مكشوف الرأس، مع عياله، سائرين على الأقدام من الأزبكية إلى وكالة ذو الفقار بالجمالية. ثم وضعوا على رأسه طرطورًا من الورق، وأركبوه حمارًا بالمقلوب، وشيعوه بأغنيات التشنيع ومواويل الهجاء، ونادَوا في الشوارع والأسواق: هذا جزاء من يتعامل مع الفرنسيين.

رفض المعلم شيحة أمر مختار الرمادي بأن يجزَّ الرجال عنق الشيخ. مكانته الدينية تحميه من الإعدام. حين مثُل الشيخ في مجلس عثمان كتخدا، أظهر كتخدا انزعاجه، وقبِل شفاعة الوجهاء والعلماء، وأطلقه بعد أن أشرف على الهلاك. أخذه التاجر أحمد محرم إلى داره. أسكن روعه، وألبسه ثيابًا، وأكرمه، وألزم نفسه بتدبير ما يحتاجه.

أكد جودة نحنوح صمت الشيخ البكري عما كانت تفعله ابنته، وأنه رأى قرني الشيخ البكري في جانبي رأسه وهو فوق الحمار.

قال جودة نحنوح: لو كانت المرأة تطلب العز فأبوها غني ... ولو كانت تطلب المتعة ...

وأشار إلى صدره: نحن أولى بالمعروف!

اتجه الجنرال الفرنسي ديبوي على رأس عدد من جنوده إلى دار الشيخ الشرقاوي للاستفسار عما يجري. لم يجِد الشيخ في بيته. واصل سيره إلى بيت القاضي. التقى بالمتظاهرين في شارع الغورية. لم يحب القاهرة منذ لحظات لقائه الأولى بها. رأى فيها مدينة قذرة، وفقيرة، وسيئة البناء. بيوتها أشبه بأكواخ كريهة، يحيا فيها سكان بؤساء، والشوارع تتنفس الطاعون، والأغنياء وحدهم هم الذين يتمتعون ببعض أسباب الراحة. وكان لا يخفي شوقه للعودة إلى فرنسا.

لولا أن ديبوي أطلق — دون تدبر — رصاص طبنجته الكبيرة، ربما ما اشتعلت الثورة. خرج الناس لدعوة الديوان إلى إلغاء الضرائب، لم يوسعوا حدود التصور إلى أبعد من إظهار الغضب. لم يكتفِ ديبوي بما فعل. شهر سيفه، واندفع — مهددًا — ناحية المتظاهرين. دفعه شيخ بعصًا في صدره. مد فخري المطيعي حارس كنيسة مار جرجس يده. مزق سترة الجنرال ديبوي العسكرية. عضته امرأة من عطفة الفقوسة في ساعده. اتجهت إلى صدر الجنرال طعنة خنجر نافذة، فقتلته. تذوق العامة طعم الدماء. بادروا إلى جند الفرنسيين، ضربوهم، اختلط رجم الحجارة وضرب العصي والسيوف ورشق السهام والطعن بالسكاكين. قتلوا غالب الطائفة، أو أثخنوا جراحاتهم.

في فجر اليوم التالي، كان معظم أبواب القاهرة في أيدي الثوار. فتحوها لأهالي الضواحي والمدن والقرى القريبة والبعيدة. دخلوا المدينة يحملون البنادق والرماح والعصي. أقام

الثائرون الحواجز في مفارق الطرق المؤدية إلى جامع الأزهر. تسلحوا وراءها بالبنادق والبلط والهراوات والسيوف والرماح. امتدت سيطرة المصريين إلى كل أحياء القاهرة، فيما عدا القلعة، وميدان الأزبكية، وثكنات الكتائب الفرنسية، ومباني المجمع العلمي، كل منها يبعد — بمسافة — عن المواضع الأخرى.

امتد الهياج إلى رشيد والمنزلة وأسوان ومدن أخرى. وترددت أسماء عمر مكرم والشرقاوي والمحروقي والخضري والبشتيلي والصاوي ومحرم والفيومي والعريشي والأمير السرسي. ظلت أحياء القاهرة الخارجية — وحدها — على هدوئها.

انضم مختار الرمادي والذين معه إلى المتمردين دون أن يعنوا بالسؤال عن الرئيس الذي يخطط، والقائد الذي يأمر إذا كان السيد عمر مكرم، أم السيد بدر المقدسي، أم شخصية أخرى لا يعرفونها. ذابوا في جموع البشر من أولاد الناس وطوائف الحِرف والزعر والحرافيش. غاب التدبير والتنسيق. أظهرت العفوية ملامحها، لكنها بدت عكس ذلك تمامًا. تساءل الفرنسيون عن القائد والمدبر لكل ما يحدث.

قدِمت أعداد هائلة من عسكر الفرنسيين، فاضطرتها آلات الحرب في أيدي المصريين إلى التراجع.

قال الكابتن جوزيف ماري مواريه: يبدو أن مصر كلها تحارب ضدنا!

اتخذ الفرنسيون أوضاع الاستعداد للقتال. عزلوا أحياء القاهرة، كل حي عن بقية الأحياء. أزالوا أبواب الشوارع والحارات، كيلا يتحصن بها المتمردون. وضعوا على النواصي متاريس وجندًا يمنعون الدخول والخروج إلا بإذن. نصبوا المدافع والقنابر والبمبات على تلال البرقية والقلعة. وفي القلاع والأبراج، وعلى نواصي الطرقات. اتجهت فوهاتها إلى الأحياء الثائرة، وانتظروا أمر قائدهم العام.

في العصر، أصدر بونابرت أمره. انطلقت قذائف المدفعية والبنادق من القلعة وأبراجها ومغازلها على المدينة في أسفل، تصيب البشر والدور بلا تدقيق. يثق القائد العام أن نجاح الثورة كان بداية اشتعال النيران في كل المدن المصرية. بدا العنف وسيلة وحيدة، صارمة، لدرء الأخطار المحتملة.

تتابع الرمي من الجانبين: آلات الفرنسيين من فوق تلال البرقية والقلعة، المدافع والقنابير والبمبات. ومن الجهة الثانية قطع الحجارة والطوب.

لاذ الناس بالجامع الأزهر، يدعون الله ليدرأ الخطر عن القاهرة.

انهالت القنابر والبمبات على الجماعات والبيوت والحارات. لم تميز القذائف بين الجوامع والدور والأسواق. اشتد الضرب — كأعنف ما يكون — ضد جامع الأزهر وما

جاوره من أماكن المحاربين كالغورية وسوق الفحامين والصنادقية والحمزاوي ودرب المبيضة وزقاق المسك. التصق الفزع بأجساد العامة من هذه الحرب التي لم يرَوا مثلها من قبل. رأوا ما لم يروه في حياتهم، فنادَوا: يا سلام من هذه الآلام ... يا خفي الألطاف نجِّنا مما نخاف!

اشتد الرجف والزلزال، وتزعزعت الأركان، وأصمَّت البنايات الآذان بصوتها الهائل، وهدمت جدران البيوت والوكائل. انتظر الناس توقف القذائف، أو الموت.

لما طال الضرب، خشيت الأم على دجاجاتها. صعدت إلى السطح بطبق الذرة. أعادها إلى السلم صوت انفجار بدا كأنه هدم البيت القريب.

كان الشيخ المقدسي يتنقل بين المصابين في المعارك، في يده كتاب الله، يقرأ منه عليهم، ويتلو الأدعية، ويواسيهم، ويصف لهم من الطب النبوي ما يواجهون به ما يعالج جراحهم.

حاول المشايخ البكري والسرسي والمهدي — يرافقهم جنود — أن يقنعوا المتمردين بالعودة من حيث أتوا، لكن الناس واجهوهم بالصياح والتسخيف والشتائم، ورفعوا ما بأيديهم يريدون تأديبهم.

لاذ المشايخ بمسجد إسكندر باشا القريب.

أمر القائد العام بقطع رءوس من يسقطون في الأسر وبأيديهم أسلحة، وإلقاء جثثهم في النيل، ما لا يقل عن ثلاثين مصريًّا في كل ليلة، وبحرق البيوت التي تُلقَى منها الحجارة. وأمر بأن يدخل الجنود الأزهر تحت حماية المدافع. يقتلوا كل من يجدوه داخل الجامع، ويحرقوا الدور التي تُلقَى منها الحجارة على جنوده.

دخل الفرنسيون المدينة كالسيل. توزعوا في الشوارع والعطوف والدروب والأزقة، كأنهم الشياطين أو جند إبليس. هدموا ما وضعه أهل البلد من المتاريس، واخترقت جماعة منهم باب البرقية إلى الغورية، ثم اقتحموا الجامع الأزهر مشاة، وعلى ظهور الخيل. تفرقوا بصحنه ومقصوراته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا المصابيح والقناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزائن، ودشتوا الكتب والمصاحف، وطرحوها على الأرض، وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وأحدثوا فيه، وتغوطوا، وبالوا، وتمخطوا، وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه وجوانبه، وكل من صادفوه به عروه، وأخرجوه من ثيابه. وأصبح يوم الثلاثاء، فاصطف منهم عدد أمام باب الجامع. كل من حضر إلى الصلاة يراهم، فيعود. تفرقت جماعات الجند في أرجاء المكان. اتخذوا السعي والطواف به منهاجًا، وأحاطوا به إحاطة السوار، ونهبوا بعض

البيوت بدعوى التفتيش على المسروقات والأسلحة وأدوات الضرب. وخرج سكان الناحية، من بيوتهم، ولاذوا بالفرار إلى غير مكان.

صمتت الثورة.

استشهد من المصريين بضعة آلاف، وقتل من قوات الفرنسيين نحو ثلاثمائة جندي. انتهكت ساحة الأزهر بعد أن كانت أشرف البقاع التي يرغب الناس في سكناها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الفقد، ولم يكن الفرنسيون يمرون بها إلا في النادر، ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر، ثم تغيرت الأحوال. اقتحموا الأسواق، ووقفوا صفوفًا متتالية؛ فإن مر بهم أحد فتشوه، وأخذوا ما معه، وربما قتلوه، ورفعوا القتلى والجرحى من الإفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيين، ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة، ووضعوها في ناحية لإفساح الطريق. وتوجه إلى القائد العام جماعة من نصارى الشام، وجماعة من الأروام الذين انتهت بيوتهم بالحارة الجوانية. شكَوا إليه ما لحقهم من الأذى. وأرسل القائد العام برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو نهب، وبث أعوانه في الطرقات، يفتشون المارة. يلقون القبض على من يشكون فيه، أو يقتلونه.

أمر القائد العام بالقبض على رءوس الفتنة. شدد على إهمال المكانة. ألقى القبض — في اليوم نفسه — على الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، والشيخ أبو شعير، والشيخ عبد القاسم. حبسوهم في بيت البكري، ثم نُقِلوا إلى قلعة الجبل. أودع الفرنسيون جماعات أخرى من المحبوسين في بيت البكري. ظلوا بها حتى أخذهم الجنود إلى بيت قائمقام بدرب الجماميز، ثم إلى قلعة الجبل. قتلوهم، وألقوا جثثهم خلف أسوار الجامعة. تردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين، فغولطوا. اتهم الفرنسيون إبراهيم أفندي كاتب البهار بإيواء جماعة من المماليك في داره، وإعطائهم الكثير من الأسلحة والمساوق والعصي. قُبض عليه، وسُجن في بيت الأغا، ثم نُقل — مع آخرين — إلى سجن قلعة الجبل. لم تُقبل فيهم شفاعة. قُتلوا، وأُغرقت جثثهم في النيل، أو دُفنوا بمعرفة الفرنسيين حتى لا يُعرف لهم مكان. نالوا من الشيخ سليمان الشواربي، قتلوه، ونقلوه إلى قليوب. دُفن في مقابر عائلته. انتشرت الأخبار بأن عمر مكرم والمحروقي فرَّا — مع الجيش العثماني — إلى بلاد الشام.

سحب القائد العام ريشته، وعدل عن التوقيع على قرار تقديم الشيخ محمد أبو الأنوار، شيخ السادات، للمحاكمة. هو يعلم، يثِق، أنه المتزعم لثورة أهل القاهرة. لكن

المحاكمة تجعل الرجل في موضع الشهادة أمام المصريين. تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم في عهد علي بك الكبير. جمع بين العلم وشرف النسب. لما قدِم الفرنسيون إلى مصر لم يتعرضوا له، ولا حاولوا مضايقته أو أذيته، واعتبروه شخصًا عالي المقام. زاره القائد العام، وقبِل شفاعته.

قال الجنرال كليبر: كيف لا نقضي بإعدامه وهو زعيم الثورة؟

أدرك القائد العام أن منزلة الشيخ بين المصريين دافعه لرفع راية الرفض ضد وجود الفرنسيين.

قال نابليون: إن إعدام مثل هذا الشيخ لا يفيد الفرنسيين، بل يؤدي إلى عواقب وخيمة.

سحب جنود الفرنسيين المئات من أهل البلد موثوقين بالحبال في أيديهم، ومضَوا بهم إلى السجون. طالبوهم بالمنهوبات، وسألوهم عن السلاح وآلات الحرب، وقرروهم بالعقاب والضرب. وكان المسجون — من شدة الألم — يدل على غيره حتى لو لم يكن فعل شيئًا، ولا خرج فيما حدث. وذبح الكثير من الناس، وألقوا بهم في النيل، ومات في يومين أعداد لا تُحصى، وطال بالكفرة بَغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين فوق ما أرادوا. وفي يوم الأربعاء ركب المشايخ والعلماء جيادهم، وذهبوا إلى بيت القائد العام. خاطبوه في العفو، والتمسوا منه أمانًا كافيًا وعفوًا ينادى به باللغتين العربية والفرنسية لتطمئن قلوب الناس.

انتهرهم بونابرت، ووبخهم، وعنفهم على تأخرهم، واتهمهم بالتقصير. لم يَعُد يطمئن إلى تصرفاتهم الدمثة، وعباراتهم المتوددة. أذهله تحوُّل المصريين من الهدوء إلى العنف في معارك الطرقات. إنهم خاضعون في العلن، وأبعد ما يكونون — في الحقيقة — عن الخضوع.

قال: يُهمني أن أعرف من وقف وراء إثارة العوام.

قال الشيخ البكري للمترجم: هي فورة وليدة وقتها.

نقل نابليون نظرته بين البكري والمترجم: نحن نعرفهم بالواحد.

قال الشيخ الصاوي: الناس ترجو إخراج الجند من داخل الأزهر.

اختلجت شفتاه: لا تعوزكم الوقاحة أيها الأوغاد الجبناء!

وشب بصدره إلى الوراء: إن المتهمين في إثارة الفتنة لا بد أن يُحاسَبوا.

وغلبه الانفعال، فعَلا صوته: لا بد من إرشادنا عن المتهمين الذين أضرموا نار هذه الفتنة.

قال الشيخ الشرقاوي: إن عفوتم فلا تسألوا عما فات.

قال بونابرت في انفعاله: إن لم تذكروهم لي الساعة فإني لا أعفو عنهم أبدًا.

واتجه إليهم بعينَين تومضان بالغضب: اعلموا أني أقدر على إظهار ما في نفس كل منكم، لأنني أعرف أحوال الشخص، وما انطوى عليه بمجرد رؤيتي له، وإن كنت لا أتكلم عما يضمره.

ثم في نبرة متوعدة: سيأتي وقت يظهر لكم فيه — بالمعاينة — أن كل ما فعلته، وحكمت به، هو حكم إلهي لا يرد!

قال الشيخ الشرقاوي ليخرج القائد العام من غضبته: هل تأمرون بإخراج العسكر من الجامع؟

وهو يشيح بيده: فليخرجوا!

أمر القائد العام، فأعلن عن منح الأمان للأهالي. كفَّ الجند عن الضرب، لكن أهالي الحسينية والعطوف أصروا على القتال، لا يستهدفون مجرد الدفاع عن أنفسهم ولا ذويهم، وإنما يستهدفون دحر الفرنسيين إلى خارج البلاد. ظل السيد بدر المقدسي وأهل الحسينية وراء المتاريس، يواصلون إطلاق الرصاص حتى فرغ البارود، فكفُّوا عن القتال.

دانت الغلبة للفرنساوية. هجموا بقضِّهم وقضيضهم. استخدموا كل ما بحوزتهم من أسلحة، وأعملوا القتل والنهب.

لم يَعُد إلا بنايات محترقة، ودُور قوضها التدمير. مات الآلاف من سكان الأحياء القريبة من الأزهر تحت الأنقاض، وامتلأت الشوارع والدروب والعطوف بالأوصال المقطعة، والرءوس المجتثة، والدماء المتناثرة.

قال الشيخ عبد الله الشرقاوي: نهب الفرنسيون من الجامع الأزهر أموالًا كثيرة. ظن أهل البلد أن العسكر لا يدخلونه، فحولوا فيه أمتعة بيوتهم!

أصدر المشايخ بيانًا يدعو أهل القاهرة للهدوء، ويعتبر الثورة من فعل الجعيدية وأشرار الناس.

هل لأن المصريين أرادوا خروج الفرنسيين، أصبحوا — في زعم المشايخ — من الأشرار؟ وهل وصفوا القائد العام بأنه رجل كامل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة للفقراء والمساكين؛ لأنهم يتمنون البقاء في وظائفهم، وأن يظلوا في عضوية الديوان؟

حتى الدين، استثمروه بالقول إن الله تعالى يؤتي ملكه من يشاء، ويحكم بمن يريد، وعلى أهل البلاد أن يحفظوا أوطانهم، ويطمئنوا على عيالهم وأديانهم!

فرض الحذر نفسه. كل جانب يخشى الجانب الآخر، ويتوقع أذاه. لم يَعُد جنود الفرنسيين يتركون أسلحتهم. يعطون انتباههم لكل تصرف مهما يبدو عفويًّا، أو بريئًا.

غاب الناس عن الأسواق — من أنفسهم — بين غروب الشمس وشروقها. لم تُفلح حيلة الفرنسيين حين عاودوا التظاهر باللطف والمودة. أيقن الأهالي أن الأفعى لا يمكن أن تبثَّ إلا سمًّا. نظر الأهالي للفرنسيين بعين الاحتقار. أنزلوهم عن درجة الاعتبار. كشفوا عن نقاب الحياء معهم بالكلية. تطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية. لم يتركوا معهم للصلح مكانًا، حتى فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال، ويمشون بهم فِرقًا وطوائف حسبة، وهم يجهرون، ويقولون كلامًا مقفًى بأعلى أصواتهم، كقولهم: الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان!

أرَّخ أهل القاهرة لأيامهم التالية بما جرى في ذلك اليوم. ما قبل وما بعد. حكايات البلد، والناس، والحكايات الشخصية.

فصل

صدر أمر القائد العام بتعويض الشيخ خليل البكري عما سلبه النهابون. أصدر أوامره بحظر خروج أهل البلد من دورهم، وتطلب من التجار أن يغلقوا الدكاكين، وتهدد كل من يخالف بالإعدام أو السجن. طافت دوريات عساكر الفرنسيين شوارع القاهرة، ولزمت الوقوف على النواصي، يمتطون الجياد أو مترجلين. اعتاد الناس صوت إطلاق الرصاص في الليل والنهار، والمتاريس يقف وراءها — للتفتيش — جند الفرنسيين.

في يوم الأحد، توجه المشايخ إلى بيت القائد العام. تشفعوا عنده في المحبوسين ببيت البكري والأغا والقلعة.

نقل المترجم قوله: وسعوا بالكم ولا تتعجلوا.

وانصرف المشايخ.

رفض القائد العام كل الشفاعات التي رفعت إليه لإطلاق سراح من أودعوا بيت البكري. أمر بقتلهم، وإغراق جثثهم في النيل، في المسافة ما بين بولاق ومصر القديمة.

نودي في الأسواق بالأمان، ولا أحد يشوش على أحد، وإن ظلت أعداد هائلة من أهل البلد والشطار والزعر في داخل السجون. واستمر إلقاء القبض على المشتبه فيهم.

فصل

لم ينعكس ما فعله الفرنسيون من اقتحامهم ساحة الأزهر، ودخولهم الجامع على جيادهم، ووطء أرضيته الطاهرة بالأحذية وسنابك الخيل. وربط الخيل في القبلة، وكسر دواليب

الكتب، وطرح ما بداخلها من المصاحف ونفائس الكتب والمخطوطات ... لم ينعكس ذلك كله على ملامح المعلم شيحة بالغضب، ولا حتى مجرد الحزن.

قال في نبرة هادئة: الجامع من بيوت الله، وعلى من دنَّسه أن يتحمل مغبَّة ما فعل!

ثم بتعمد لفصل الحروف: كل ما علينا أن نصلي صلاة استخارة لنعرف ماذا يأمرنا الله!

قال مختار الرمادي كالمنتبه: لم أرَ السيد بدر المقدسي بعد ما حدث.

قال المعلم شيحة: قيل إنه سافر إلى جهة الشام.

وتراقص على شفتيه ظل ابتسامة: يبدو أنه أشفق على نفسه من مصير قتلى القلعة.

أردف في نبرة مهونة: كلٌّ يبذل قدر استعداده!

فصل

توالت الطَّرقات على باب البيت. بمجرد أن أدارت تغريد المزلاج، تدافع جنود فرنسيون شهروا أسلحتهم. أهملوا صرخة تغريد الخائفة. جاوزوها إلى داخل البيت. المعلم شيحة يتربع على الأريكة، والأم على باب حجرة نومها، فزعة من الطَّرقات.

أسكت المعلم شيحة صرخة تغريد بشخطة غاضبة. ظل الخوف في عينَيها وهما تتابعان حركة الجنود داخل الدار. تناثروا في القاعة. صعدوا إلى الحجرات العلوية والسطح. هبطوا إلى البدروم. وقفوا على الباب الرئيسي، وفي أيديهم البنادق.

لم يظهر المعلم شيحة الضيق، ولا التأثر، حتى لعمليات التفتيش التي شملت البيت بكامله. اعتاد — في داخل البيت — سماع وقع سنابك الخيل، أو أقدام الجنود. يحدس أن الحملات تفتش عن الحرافيش الذين يتصدون لجند الفرنسيين بالسلاح. يتوقع طرقاتهم على باب البيت، أو اقتحامهم له.

كان يتصدر صحن الدار. يستند براحة يده على عصًا من خشب السنط. يتأمل حركة الجنود بعين صاحية، ساكنة. يعلو صوته بنداء، أو ملاحظة.

همست تغريد: هل يفتشون عن مختار؟

لكزها بقبضة يده في كتفها: لماذا يفتشون عنه؟

ورماها بنظرة ساخطة: لا أحد سيؤذي مختار إلا لسانك الذي سأقطعه ... اخرسي!

تدرك ما يفعله مختار من قبل ترددها على بيت البكري بالجودرية. تناديه من وقفتها وراء الباب في الطابق العلوي. قد يكون منشغلًا بالحديث مع ضيوفه في القاعة التحتانية

— أَلِفت وجوههم — فلا ينتبه لندائها، ويواصل كلامه. يتأخر بعد موعد إغلاق الورشة، لا يلزمها بانتظاره. تُعِد له العشاء، وتصعد إلى حجرتهما. تروح في النوم، لا تشعر به وهو يتمدد على السرير بجوارها. طلب منها مختار أن تتردد على بيت البكري، وتخبره — وحده — بما تراه. جاوزت الحدس إلى التيقن من أن جلسات الطابق الأرضي تُعِد شيئًا ضد الفرنسيين.

قالت الأم: ما له مختار؟

قال المعلم شيحة: لا شيء!

وأشاح بيده: فليبحثوا عما يريدون، ويذهبوا إلى حال سبيلهم!

آخر ما تبينوا وجوده، قبو تحت الأرض ناحية درب المزينين في جامع الأزهر. يتجه بتعرجات إلى تلال الدراسة. سدوا القبو من بدايته، ومن نهايته. شقه الجنود بهدف القبض على الفاعلين. اكتشفوا مسالك أخرى فرعية، مضى فيها العامة إلى حيث لا يدري أحد.

تحدث الناس في قعداتهم داخل البيوت، وعلى المقاهي، ومصاطب الدكاكين، عن حكايات الشطار مع جيش الفرنسيين. تبارَوا في رواية ما بلغهم من أفعال الشطار وخفاياهم. تحدثوا عن الشاب ذي القدرة على الحياة في الخفاء والستر، داخل الأقبية والمغارات والكهوف والحجرات المغلقة. إجادته تسلق الأسوار والجدران كأنه العنكبوت. وعرف عنه إتقانه لفنون الحيلة وأحابيل الخداع.

أبدى رواة السيرة وعازفو الربابة عجبهم لإصرار رواد المقاهي على أن تستعاد حكايات علي الزيبق، وما فعله ضد الكلبي ودليلة المحتالة. يهملون تدخين القنب، واحتساء الشربات والقهوة، ولعب الضامة والشطرنج والمنجلة، ومشاهدة خيال الظل، والثرثرة. يهللون لرؤية شاعر الربابة، يتوقعون الحكايات والسيَر التي تطرد السأم المتنامي داخل النفوس.

قاطعوا الراوي في قهوة بحبح بالمناصرة. طالبوه بأن يستبدل حكاية علي الزيبق بسيرة الهلاليين.

لم يتحدث الجنود عن بواعث التفتيش. ظلوا صامتين، وشاهرين لأسلحتهم. توزَّعوا بين الحجرات، في الطابقين الأرضي والعلوي، وفي دورة المياه والحمام والمطبخ. حتى الباب المفضي إلى الخرابة الخلفية، عالجوه حتى انفتح.

فتشوا في الخزائن المفتوحة، وتحت الكنبات، والأريكة التي يجلس المعلم شيحة فوقها. بعثروا ما في الخزائن والثياب المعلقة على المسامير المثبتة في الجدران. قذفوا بالقدور النحاسية والمغارف والمواعين. كسروا جرار الزيت. حطموا آنية الفخار. دسُّوا سيفًا في جوال الدقيق بحثًا عن السلاح بداخله. لم يشغلهم انسكاب الدقيق على الأرض.

قال ضابط نحيل الجسد وهو يشير إلى صندوق لصق الجدار: أين المفتاح؟

تلفت المعلم شيحة يغالب مخاوف لا يدري كنهها. اختلطت التصورات في رأسه وتشوشت. دسَّ يده في جيب الجلباب. أخرج منديلًا، مسح به حبات العرق النابتة في جبهته.

أخرجت الأم مفتاحًا من سيالة العباءة الواسعة السوداء. عالج به الضابط قفل الصندوق حتى انفتح. كانت الأم تحتفظ في داخله بأحجبة وعقود وسلاسل من الذهب والفضة، ومناديل حريرية، وقصاصات ورق، ومفاتيح.

فصل

عمليات التمرد أربكت القائد العام. تجاوزت القاهرة إلى الكثير من المدن المصرية: تحوَّلت دمنهور إلى مركز للمقاومة. تصيد الفلاحون الرسام جولي من رحلة لأعضاء اللجنة العلمية في الدلتا. لم يستطع الفرار، فقُتل. قاد الشيخ حسن طوبار مئات المقاتلين في المنطقة بين دمياط والمنزلة والمنصورة. شنوا الهجمات على السفن الفرنسية التي استقلها الجنود في النيل، وأبادوا حراس المخافر، وتعددت المعارك بينهم وبين قوات الفرنسيين. كان الشيخ طوبار ملتزمًا لكل عمليات الصيد في بحيرة المنزلة. يمتلك أسطولًا كبيرًا من مراكب الصيد، قوامه خمسة آلاف مركب، وعددًا من مصانع نسج القطن، ومن المتاجر. وكانت له عقارات كثيرة، وأراضٍ مترامية المساحة. اقتحم الفرنسيون المنزلة، واستولَوا عليها. سيطروا على منطقة البحيرة بأكملها. لجأ طوبار — وأسرته — إلى غزة. تصدى الأهالي في المنصورة لكتيبة من ١٢٠ جنديًّا. قتلوا ثلاثة، وطاردوا الباقين في الخلاء، فلم يفلت منهم إلا العدد الأقل. اعتصم شيخ العرب سليمان الشواربي في الجبل الغربي. ظل يناوئ عساكر الفرنسيين، وينصب لهم الكمائن. قتل أهالي قرية علقام ستة عشر جنديًّا فرنسيًّا في كمين. أمر القائد العام بحرقها، ومصادرة ما فيها من ماشية وغلال، واقتياد العديد من أعيانها إلى السجن. وقع الجنرال مينو في كمين، نصبه له أهل قرية شباس عمير، فأحرقها — انتقامًا — عن آخرها. لقي الجنرال لانوس مقاومة شديدة من أهالي سلامون وسرسنا، لكنهم أفلحوا في قتل الشيخ أبي شعير، ونهبوا داره ومتاعه وبهائمه، وقتلوا عائلته وأسرته، عدا ولد صغير جعلوه شيخًا بدلًا من أبيه. تمكن العربان في المنصورة من إبادة الحامية الفرنسية. أكثر من مائة وثلاثين جنديًّا.

امتدت ثورات العربان إلى سنباط وميت غمر ودنديط وميت الفرماوي. خرج أهل قريتَي تلا وغمرين التابعتَين لمركز منوف. قتلت قوات الفرنسيين خمسمائة رجل وامرأة

قبل أن تدخل غمرين. قتل أهالي عزبة البرج كل من تصادف وجوده في بلدتهم من القوات الغازية. بالبنادق والعصي، رد أهالي أبو زعبل قوات الفرنسيين إلى الخانكة، وقتلوا كل من حاول المقاومة. انسحب من بقي من الفرنسيين إلى المطرية والمرج، وانتهى فرارهم في القاهرة. قتل أهل بردين في الشرقية خمسة من جنود الفرنسيين، وجرحوا غيرهم، بينما لاذ الآخرون بالفرار. اقتحمت قوات الفرنسيين القرية. أحرقوها، وقتلوا من الأهالي ما يزيد على الثلاثمائة. في «سدمنت» تواجه الفرنسيون من ناحية، وأهل القاهرة والمماليك من ناحية ثانية. طلقات الرصاص والمدافع قابلتها الهراوات والبلطات والمسدسات والغدارات. قتل من المماليك والمصريين ما يصل إلى أربعمائة، بينما قتل من الفرنسيين ثلاثين قتيلًا.

رفع الشيخ الكيلاني — من مجاوري مكة والمدينة — راية الجهاد ضد امتلاك الفرنسيين أمور مصر. تبعه خلق كثيرون. انضم إليهم في الطريق من الحجاز إلى الصعيد أعداد من أهل الصعيد، ومن الترك والمغاربة. زحفوا على جرجا. لاقوا هناك قوات الفرنسيين، ودارت معارك متتالية. وعاقب القائد العام أهل قرية السالمية — على ضفة النيل — لقتلهم ثمانية فرنسيين، كانوا يحملون رسائل من كليبر إلى القائد العام. تعرضت للهجوم سفينة للفرنسيين تقطع المسافة بين رشيد والقاهرة. تعددت أحكام الإعدام ضد الثائرين في رشيد. بدَّل الرواة وشعراء الربابة من السير والحكايات. أضافوا وحذفوا. عكسوا ما يجري في المدن والقرى، وعلى ضفاف النهر، وفي الخلاء والصحراء وداخل الزراعات، وفي ميادين القاهرة وشوارعها ودروبها وعطوفها وأزقتها.

لم يكن ذلك ما خطط له بونابرت، ولا توقعه. تباعدت المسافة بين ما سُجل على الأوراق والواقع. لم يتصور أن حكومة الإدارة ستهمل إغاثته بعد تدمير الأسطول الفرنسي في أبو قير. توقع المدد من الرجال والمؤن والسلاح. تفاقمت المشكلات بما لم يكن يتصوره. حصار الإنجليز للسواحل المصرية، انتشار تمرد المصريين في المدن والقرى، لا يهدأ تمرد، حتى ينشب آخر. مناوشات مماليك مراد بك في مصر العليا، تقلص أعداد الجنود والعتاد فلا يستطيع أن يضيف إليها أو يدعمها على أي نحو، نفاد الطعام من المعسكرات، تبليغات الأعين بخيانة جوزفين، الأنباء السيئة المتوالية، عن تدهور الأوضاع الإدارية في باريس، هزائم حكومة الإدارة المتوالية حتى حاصر التهديد كل حدود فرنسا.

صدرت أوامر القائد العام بمنع الناس من الكلام في أمور الحكم، ومن التعبير عن الفرحة أو الشماتة، إذا شاهدوا جندًا من الفرنسيين جرحى أو فارين.

قال الكابتن جوزيف ماري مواريه: لو لم يتحطم الأسطول في أبو قير، كنا قد أبحرنا عائدين إلى الوطن.

أضاف من بين أسنانه: صورت لنا الحملة على مصر فاصلًا ترفيهيًّا. لم يخطر في أذهاننا ما نعانيه.

كتب القائد العام، في مذكرة يرد بها على الاستقالات التي رفعها إليه الكثير من ضباط الحملة: «ليس في نيتي أن أحتفظ في الجيش برجال لا يقدرون شرف زمالتي في السلاح. فليذهبوا، وسأيسر رحيلهم، لكنني لا أريدهم أن يُخفوا دوافع رفضهم مشاركتنا الجهود والأخطار بدعوى الإصابة بأمراض شتى. نحن — في المقابل — لن نخاطر بإشراكهم في أمجادنا الحالية والمقبلة.» وأملى على سكرتيره لإدارة باريس: «كل شيء هنا يجري على ما يرام، والبلاد كلها تحت سيطرتنا، والشعب أخذ يألفنا.»

الباب الثامن

فصل

حين أعلن الرسل قرب وصول موكب القائد العام إلى القاهرة، هلل — لقدوم الموكب — من جمعهم الشيخ خليل البكري، وعدد من التجار وأرباب الحرف وأرباب الصنائع. دخلت الكتائب — من باب النصر — دخول الظافرين. نثر في طريقها سعف النخل. زينت المحال بالشقق والحرير والزردخان والتفاصيل الهندسية. أوقدت المصابيح والشموع ومنارات المساجد. عملت المغاني والمزامير في العديد من الجهات. حملت مواكب الصوفية البيارق والخرق والطبول والزمور. عرضت في ميدان الأزبكية ما حصلت عليه الكتائب من غنائم. شق الموكب المدينة، حتى بلغ قلعة الجبل. ضربت المدافع من الأبراج تحية له، وهو يصعد إلى أعلى القلعة. اكتفى أهل القاهرة بالرؤية الصامتة وهم وقوف على جانبَي الطريق.

أهدى البكري بونابرت جوادًا عربيًّا، سرجه مزين بخيوط الذهب واللآلئ والفيروز، وأمسك بمقوده مملوك البكري الشاب روستان. أهداه البكري هو أيضًا إلى بونابرت، وأهدى القائد العام جيادًا أخرى، عليها سروج فاخرة، وجمالًا، وسيوفًا مرصعة بالجواهر، وسجاجيد، وشالات من الكشمير، وعباءات، وزجاجات عطر، ومجامر بخور.

أُلقيت خطب الترحيب، والفرحة للانتصار. ما قاله بونابرت أمام قلعة عكا: أفل نجم حظي السعيد، نقله الضابط برتيه إلى ضباط الحملة في الشام، نقلوه إلى ضباط الحملة في القاهرة، نقلوه إلى معارفهم من المشايخ. عرف خليل البكري أن نابليون هُزم في سورية. ربط حياته بمصير الرجل، فلا سبيل إلى التراجع.

كان الأميرال نلسن قد عاد إلى الإسكندرية في أول أغسطس. واجه أسطول الفرنسيين في معركة أبو قير، وتحطم أسطول نابليون تمامًا. حوصر جنود الفرنسيين في مصر،

فانقطعت صلة الفرنسيين ببلادهم. لم تَعُد المملكة الشرقية في حوزة اليد، ولا هي التي يسهل إنشاؤها، ولم يَعُد أمام بونابرت إلا أن يوسِّع دوائر سيطرته، فيمتلك سورية. أزمع أن يستولي على سورية، ويقضي على دولة الخلافة العثمانية، ثم يعود إلى أوروبا بطريق بر الأناضول. جمع الديوان. تحدث إلى أعضائه عما يأمله من الحملة. أهم المزايا تنمية التجارة. حدد مدتها بما لا يزيد عن الشهر.

قال: عليكم ضبط البلد والرعية مدة غيابنا، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات. كل كبير يضبط طائفته فلا تحدث فتن مع العسكر.

أصدر ساري عسكر أوامره إلى دوجا حاكم القاهرة، بأن يطلق النيران من كل القلاع، إذا حدث شغب. يحرق المدينة بلا تردد!

بدأت الحملة على سورية، قوامها اثنا عشر ألف ضابط وجندي، عانوا نقص الكثير من المعدات والذخيرة والمؤن، حتى الأدوية والأحذية والملابس والنقود، أشياء كثيرة كانت الحملة في حاجة إليها. وعانوا حرارة الجو، وندرة الماء، قرصات البعوض، والحمى، والخوف من المجهول.

استولت الحملة على قلاع العريش وغزة والرملة ويافا. كان السيد عمر مكرم قد ارتحل عن القاهرة بقدوم الفرنسيين إليها. صارح أقاربه وأصدقاءه ومريديه أنه لن يعود إلا على جهاد. ظل في العريش شهورًا، حتى قدِم إليها بونابرت على رأس جنوده في ١٧ فبراير ١٧٩٩م. لجأ عمر مكرم إلى يافا. اقتحم الفرنسيون المدينة. أعملوا السيف في كل من له وجه إنسان. ظلوا يقتلون، ويذبحون، يومًا كاملًا. بلغ عدد من ماتوا — ضحى اليوم التالي — أكثر من ألفي طفل وامرأة ورجل، بالإضافة إلى هتك الأعراض والسلب والنهب والإحراق والتدمير. سبقت عودة القائد العام أنباء قتل الأسرى. أكثر من ألفين وخمسمائة عسكري وافق على قتلهم بالحراب للنقص في طلقات الرصاص. ارتفع في ساحة القتال هرم مرعب من القتلى، ومن المشرفين على الموت.

كان نابليون حريصًا — ربما للتخويف — أن تصل أنباء ما حدث إلى القاهرة. أضاف إليه بيانًا — بالعربية — يبلغ فيه سكان المدينة أنه لم يترك في عكا حجرًا فوق الآخر، وأنه يمكن للمرء أن يسأل عن المدينة التي كانت في هذا المكان؟!

لحق القائد العام السيد عمر مكرم في المدينة. أرسل في مقابلته. كانت المدة التي قضاها بونابرت في الحياة المصرية قد وضعت يده على قيم الرجال ومكانتهم. وجد نابليون في عودة عمر مكرم إلى القاهرة ما يطمئن به قلوب المصريين، ويكسب ودهم. هو يعود من المنفى الذي لم يفرض عليه، فهو يطمئن إلى حكم الفرنسيين، فيطمئن كذلك أهل البلاد.

أمر نابليون بإرجاع عمر مكرم إلى مصر محاطًا بالاحترام.

أمضى في دمياط ثلاثة أشهر قبل أن يتركها إلى القاهرة. بلغها في الثالث من صفر ١٢١٤ه، الموافق السابع من يوليو ١٧٩٩م.

حاصرت قوات الفرنسيين قلعة عكا. نصبت من حولها المتاريس والطوابي، وحفرت الخنادق، وبدأت في ضربها بالمدافع والقنابل. بعث القائد العام الكثير من الكتب، تشيد بانتصاراته، وبترحيب أهالي البلاد التي وصل إليها بقوات الفرنسيين. وقال في أحد كتبه: «عند وصول كتابنا هذا إليكم نكون قد ظفرنا بقلعة عكا. وأما إقليم الشام، وما يلي عكا من البلاد، فإنهم لنا طائعون، وبالاعتناء ومزيد المحبة راغبون، يأتوننا بكل خير عظيم، ويحضرون إلينا أفواجًا بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم. وهذا من فضل الله علينا، ومن شدة بغضهم للجزار باشا، ونخبركم أن الجنرال يونون انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام، خيالة ومشاة، فقابلهم بثلاثمائة عسكري بيادة من عسكرنا، وانتصر عليهم، وأوقع منهم نحو ستمائة نفس.»

ما فعله نابليون بقتل ثلاثة آلاف جندي أسرى من الشوام والأتراك، أحدث رد فعل لم يتوقعه، حين أمر بالفعل الشرير. اعتزم من احتموا بقلعة عكا أن يواصلوا الدفاع، لا يلقوا السلاح حتى لا يواجهوا مصير الأسرى الشهداء.

تولى أحمد باشا الجزار نفسه تجهيز جنوده داخل القلعة، وتزويدهم بما يحتاجون إليه من الذخائر وآلات الحرب والمئونة.

قال نابليون لأحد ضباطه: لو استطعت أن أستولي على عكا، فسأنصب نفسي إمبراطورًا على الشرق، وأعود إلى باريس عن طريق القسطنطينية!

حمل جند نابليون — عشرات المرات — على القلعة، وأبراجها، وأسوارها، ووضعوا السلالم عليها. لكنهم دحروا بعد أن أبيد غالبيتهم. وحين أفلح بعض جند الفرنسين في التسلل — تحت جنح الظلام — إلى المتاريس والطوابي خارج القلعة، ونفذوا إلى الداخل. واجههم جنود المسلمين بنيران المدفعية، وبالسيوف، وفجروا لغمين كبيرين كانوا قد أعدوهما، فتحولت الأرض من حول الفرنسيين إلى جحيم.

أضاف الأسطول الإنجليزي إلى إضعاف الحصار على قلعة عكا، حين أغرق — في ميناءَي عكا وحيفا — ما تبقى من سفن الأسطول التي أفلتت من النيران، وظلت بعض السفن الإنجليزية راسية في ميناءَي عكا وحيفا. استمر حصار عكا أربعة وستين يومًا. عرض بونابرت الهدنة لسحب قتلاه، وتبادل الأسرى. لكن الجزار باشا طرد مبعوثي بونابرت،

وأمر بمواصلة القتال. تكررت محاولات التسلل، وتكرر إخفاق الفرنسيين، وبلغ عدد قتلاهم ألفًا ومائتي جندي، وجزَّت رءوس القادة والضباط، ومات بالطاعون حوالي الألف، بثور ودمامل تحت الإبط، أو في الجزء الأملس من البطن، بقع قرمزية اللون، أو جمرات حمراء على الساقين. تنفجر الدمامل. يخرج منها كميات هائلة من القيح، ثم يأتي الموت.

حمل الأطباء تعليمات بأن يشخصوا الطاعون على أنه حمَّى مصحوبة بدمامل، فمن السهل شفاؤها. من تُسول له نفسه أن ينشر الخوف في نفوس الجنود بتسمية الطاعون، لا يستحق أن يكون مواطنًا فرنسيًّا، ويحق عليه العقاب.

بلغ عدد المرضى والجرحى بحالات خطرة حوالي الألفين والثلاثمائة جندي. لم يَعُد أمامهم إلا تفجير ما تبقى في حوزتهم من ذخائر، والتخلص من أمتعتهم، ودفنوا في الرمال ما عجزوا عن حمله. ثم لاذوا بالفرار إلى غزة، ومنها إلى مصر.

أجبرت الخسائر قوات الفرنسيين على العودة إلى مصر في العشرين من مايو ١٧٩٩م. أمام عكا تبدلت الأمور. أضاف إلى المأساة ما قاله «دوجا» نائب القائد العام في رسالة من القاهرة: «إننا نفتقر هنا إلى المال، والمال، والمال، وإلى الرجال والذخيرة والخشب والسلاح وصداقة السكان.» تحولت حياة بونابرت إلى ما قبل، وما بعد. تسللت الأكاذيب حتى في أوامره إلى جنوده: «والآن وقد وطدنا أقدامنا في قلب سوريا ثلاثة أشهر بحفنة من الرجال لا أكثر، وبعد أن هدمنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا، سنعود إلى مصر، وقد اتخذت قرار العودة مضطرًا لتوقعي إقدام العدو على إنزال قوات هناك.» أردف قراره بالانسحاب، قرارًا غير معلن بأن يجعل هزيمته انتصارًا دعائيًّا.

امتطى القائد العام جواد البكري المهدى إليه. مضى الموكب إلى مقر إقامة بونابرت في قصر الألفي، من حوله أتباع البكري والتجار والحرفيون، وطلقات المدفعية تطلق قذائف الفرحة في سماء القاهرة.

استقبل بونابرت أعضاء الديوان. ابتدرهم بقوله: بلغني شائعات الأعداء بأنني مت. حدِّقوا فيَّ جيدًا. هل أنا بونابرت أو لا؟

وأخلى وجهه لتكشيرة: لا بد أن نضع حدًّا للفتن التي يحاول بعض المشايخ في الجوامع إثارتها.

وسدد إليهم نظرة من اتخذ قرارًا: أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تلزم الناس أن يقسموا يمين الطاعة لي.

تبادلوا النظرات في حرج. تمعن الشيخ الشرقاوي في وجهه، يتبين ما إذا كان يعني ما قاله: أن تطلب رعاية رسول الله الذي يحبك، وتريد من المسلمين أن يعيشوا تحت رايتك. وكما قلت فأنت لست مشركًا ولا وثنيًّا. لماذا إذَن لا تعتنق الإسلام؟

قال بونابرت: علامَ تبني عدم إسلامي؟

وأشار إلى البكري والسادات: هذان الشيخان يشهدان بإسلامي.

أردف في لهجة غاضبة: أشم رائحة تآمر لإبعادي عن دين الإسلام!

ذهب السيد عمر مكرم إلى قصر الألفي. امتد غيابه عن القاهرة ثمانية أشهر، شهدت انهيار دولة إبراهيم ومراد، وتحطم أسطول الفرنسيين في أبو قير، وثورة القاهرة الأولى، وأحداث أخرى كثيرة، توالت فأخطأها العد.

لم يجد في لقائه بالقائد العام ما يصنع انفراجة باب بين المصريين والفرنسيين.

عاد إلى داره بنية الاعتكاف. لا يتصل بالفرنسيين، ولا بالمتصلين بهم من المشايخ أعضاء الديوان. اعتذر عن المشاركة — بأية صورة — في حكم البلاد. معنى المشاركة إقرار حكم الفرنسيين وتأييده. لم يدخل الديوان، ولا حاول استعادة المنصب الذي سلبه البكري منه في نقابة الأشراف. حين تولى نقابة الأشراف، لم يُظهر البكري الغضب، ولا مال إلى المعارضة من أي نوع. بدا كأنه امتثل للأمر، وإن كتم الحقد في نفسه أعوامًا، حتى قدِم الفرنسيون. أعادوا له ما يزعمه لنفسه من منصب ومكانة.

لم يحاول حتى تولي نظارة الأوقاف التي استمر حكمه لها سنوات. ولما أعاد له بونابرت بعض ما صادره من أملاكه، تعفف من أن يطالب القائد العام برد كل تلك الأملاك.

فصل

لن يتكرر ما حدث في أبو قير، ولا في الشام.

تلقَّى القائد العام أنباء الإنزال العثماني في أبو قير، وهزيمة الكتيبة الفرنسية ذات الثلاثمائة جندي، والدفاعات الضعيفة.

فاجأه ما لم يتوقعه. شمله القلق، وإن أخفاه بأوامر سريعة، بصوت هادئ، وتوقيعات غير مهتزة. إعادة تجميع الكتائب الفرنسية، تأمين مؤخراتها، تهدئة المصريين — أو تخويفهم — فلا تنشأ من جانبهم تصرفات تضيف إلى متاعب كتائبه.

جعل بونابرت مقر قيادته في قرية بركة غطاس بالقرب من دمنهور. عشرة آلاف جندي من كتائبه، وألف من سلاح الفرسان. هاجم المماليك والجيش الهمايوني من اليسار،

عند الزحف على الإسكندرية، ومن اليمين عند السير في اتجاه النهر. توالت هجمات جنود الفرنسيين كالأمواج العالية، تهبط موجة، فتلحقها أخرى. شكل توالي الأمواج مدًّا دفع أمامه قوات الجيش الهمايوني المبعثرة في اتجاه البحر. ابتلعت المياه آلاف الجنود من الأتراك، ربما عشرة آلاف جندي أو أكثر. أغرقت ناقلاتهم قبل أن ينزل إلى ساحل أبو قير. وطفت فوق المياه آلاف القطع من أزياء جنود المماليك والعثمانيين. انتصر ذكاء القائد العام لكتائب الفرنسيين، وحسن تدبيره، على قتال العثمانيين العشوائي، وغياب الإعداد والتخطيط عند فرسان المماليك. أعلنت قوات الجيش الهمايوني استسلامها، بعد أيام من بداية المعركة.

عوَّض النصر الفرنسي هزيمة عكا، محاها تمامًا. احتضن كليبر قائده — ولم يكن يخفي ضيقه من تصرفاته — وهتف: أيها الجنرال، اسمح لي أن أقبلك. أنت كبير مثل العالم! بل إن عظمة العالم ليست بالقدر الذي يساوي عظمتك!

حتى هزيمة الأسطول الفرنسي في المدينة نفسها — قبل سنة — شحبت، تلاشت، كأنها لم تكن.

دعا القائد العام أعضاء الديوان. حدَّثهم عن ذكر العلوم والفنون في القرآن الكريم. لامهم على تقاعسهم عن رد الشائعات التي نالت منه، ومن الجيش الفرنسي. قال إن أرصاده أبلغوه بدعواتهم المعلنة لأن يواجه الهزيمة.

طاف عليهم بنظرة جامدة: لو أن ما تمنيتموه قد تحقق؛ فإن دق أعناقكم هو المصير الذي كان ينتظركم!

وتقلصت راحته على مقبض السيف: هذا ما كنت قد أمرت به.

وعلا صوته متسائلًا: كيف شككتم في نصري؟ لقد أكدته لكم قبل رحيلي، وكان لا بد أن يكفيكم هذا. أعلم ما يدخره الله لي جيدًا، حتى إنني من عشرة آلاف رجل اصطحبتهم معي إلى أبو قير لم أستخدم سوى ثلاثة آلاف فقط، وكان فيهم الكفاية لهزيمة جميع الخونة وقتلهم.

أخذه الغضب، فراح يتكلم بلا توقف. تحشرج صوته. اختنقت الكلمات في حلقه. غمغم بما لم يفهمه هو نفسه.

كان الشيخ الشرقاوي على ثقة أن الفرنسيين يختلفون عن المماليك. يسمي المماليك أنفسهم «المصرلية». أما الفرنسيون فليسوا إلا محتلين. قاد تمردًا شعبيًّا ضد المماليك حتى اضطرهم إلى قبول السير في الناس سيرة حسنة، وانجلت الفتنة. هل يستطيع أن يقود

التمرد نفسه ضد الفرنسيين؟ أليست المعاملة الشنيعة التي واجهتها ثورة القاهرة تحذيرًا، فلا يُقدِم على قيادة ثورة ثانية؟

قال الشيخ لنفسه: سيظل بونابرت غريبًا وكافرًا، ما لم يثبت اعتناقه الإسلام. قاطع القائد العام: سيدي الجنرال. لقد وعدتنا بأن تصبح مسلمًا؟

قال القائد العام: لم أعدكم بشيء. مع هذا فأنا مسلم. وربما كنت كذلك أكثر منكم ... لكن إذا لم تغيروا من سلوككم هذا فسوف أعود للمسيحية عقابًا لكم!

ثم وهو يهز إصبعه: سوف أجعل ما قيل يمر هذه المرة ... لكن تذكروا أنها الأخيرة.

يثق أن الكذب يتجاوز حديثه عن الإسلام إلى تأكيد الانتصار في أيامه الحالية، وفي المستقبل.

هزم محاولة إنزال العثمانيين في أبو قير، لكن القرار الصعب ظل لائحًا أمامه. ذوى حلم الدولة الشرقية. صار في قبضة المستحيل. حسم قراره حين تلقى من حكومة الإدارة في ٢٦ مايو ١٧٩٩م رسالة تقول: «عليك أيها المواطن الجنرال أن تنظر فيما إذا كان بوسعك أن تترك في مصر — باطمئنان — جزءًا من قواتك. في هذه الحالة، فإن حكومة الإدارة تخوِّلك أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسبًا.»

فصل

نقل السقا حميدة أبو قطة إلى مختار الرمادي ما أشيع في الأسواق من وجود علامات بوصول قريب لجيوش عثمانية. أطال بونابرت زيارة إلى بيت شيخ السادات. نفى الشيخ ما أثاره بونابرت من وجود رسالة بعث بها العثمانيون. تجمَّع المئات من أهل القاهرة أمام بيت السادات. يظهرون انزعاجهم على الشيخ. تناثرت الأقوال، وإن تلاقت في أن القائد العام يخشى من تمرد المصريين، وأنه — خوفًا على حياته — سيعتنق دين الإسلام. وقال بيرم الغندور السقا بسوق الجمعة إن بونابرت طلب من الشيخ السادات تصريح أمان لمغادرة مصر. وحين تعالت الأصوات — فجأة — عند خروجه من البيت، سأل نابليون وهو يتجه إلى عربته. بدَّل المترجم تلاوة الناس للفاتحة، إلى أنهم يدعون للقائد العام.

فصل

التقيا في دار جمال الدين الذهبي كبير التجار بحارة خوش قدم. يطل على الفناء مقعد ذو عقدَين متكئَين على عمود من الرخام، ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى على إيوانَين

تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الخشب، يكسو أسفل جدران القاعة رخام ملون بديع الصنع. وثمة جزء على هيئة محراب.

ليظل الأمر في تكتم، صحبه إلى الإيوان البحري. في صدر القاعة مشربية مغلقة على الشارع، تعلوها شبابيك صغيرة من الجص، وقطع الزجاج الملون، وسقفا القاعة والمقعد مزينان بالدهان والذهب، وأرضية القاعة مغطاة بالرخام، وتتوسط فناء البيت نافورة من الرخام …

فاجأه بالقول: بونابرت عاد إلى بلاده.

– لعله رحل لأمر طارئ.

– مضى في الليل ولن يعود … أخبرَني بذلك ضابط فرنسي صديق.

أضاف — من رواية الضابط الفرنسي — أن بونابرت أدرك — بعد إخفاقه في حصار عكا — أنه لم يَعُد بإمكانه البقاء في مصر. تظاهر — حتى أمام ضباطه — أنه سيظل حاكمًا لمصر، وأنها ستظل نقطة الارتكاز في إمبراطوريته الشرقية.

عرَف نابليون في القاهرة أن جيش الفرنسيين يخوض معارك في أوروبا، فأزمع العودة — سرًّا — إلى فرنسا. أدهشه ما رواه الضابط من أن خدم نابليون فضُّوا رسالة تركها لكليبر — قبل عودته إلى بلاده — يدعوه للتفاوض مع الباب العالي في الجلاء عن مصر، إن لم يأتِه المدد خلال ستة أشهر. أمر بتعيين كليبر قائدًا عامًّا، وتعيين ديزيه قائدًا للصعيد.

فصل

قالت البلَّانة نعناعة وهي تدخل على زينب:

– عندي خبر سيئ.

ظلت ساكنة، وإن أومأت بأن تستكمل كلامها.

– الفرنسي عاد إلى بلاده.

– أي فرنسي؟

– القائد العام … نابليون بونابرت.

حاولت أن تتغلب على شعورها بالمفاجأة. منذ أيام، استضافه أبوها في بيت الأزبكية، في احتفاله بالمولد النبوي الشريف. زار أبوها الجودرية هذا الصباح. لم يشر إلى نية القائد العام في الرحيل. تكلم عن لقاءات أخرى قادمة.

– ما شأني إن سافر أو ظل في مصر؟!

– حسبت أن هذا الخبر يهمك.

وداخل صوتها ارتباك: تكلموا به في السوق.

همست زينب كأنها تكلم نفسها: لم نَعُد نلتقي منذ فترة طويلة.

هجرها القائد العام منذ رآها في الثوب الفرنسي. بولين نوريس هي التي حرضتها على إبدال ثوبها. المرأة خائطة، فحاكت بنفسها الثوب الذي ارتدته. أدركت المعنى حين قصر نابليون صداقته — فيما بعد — على بولين. حين عرض عليها الضابط أونوريه ديستان وده، غالبت التردد. بدت العلاقة مقبولة بين الشريفة والقائد العام، ثم عرفت الطريق إلى بيت الضابط.

قالت زينب: لا أحد يستطيع أن ينسب إلينا علاقة غير قائمة.

وارتعش أنفها بالارتباك: كل علاقة لها طرفان ... فأين الطرف الآخر؟

فصل

استعصت الأمور على بونابرت في عكا، فعاد إلى مصر.

دخل جيش الباب العالي دمشق. انضم إلى إنكشارية الجيش العثماني أعداد من الأمراء والولاة وجنود الإقطاعيات، بلغوا خمسين ألف جندي، ثم واصل الصدر الأعظم سيره إلى مصر. استولى على العريش، وأسر نحو مائة وخمسين من قوات الفرنسيين، وقتل الباقين.

قال الشيخ المقدسي: لعله سافر لغزوات جديدة.

قال مختار الرمادي: ولماذا لا يكون قد أدرك استحالة البقاء في مصر؟

– ما أعرفه أن نابليون عهد بالأمر إلى الجنرال كليبر.

– كليبر!

عرف ممن اتصلوا به أنه يجيد الشئون الإدارية، ويميل إلى الانضباط، وأن هيبته يحترمها الضباط والجنود.

قال: يقال إنه لا يؤمن بجدوى الحملة!

قال المقدسي: ما يهمه هو المحافظة على أرواح المواطنين الفرنسيين، وليس التطلع إلى إعجاب التاريخ!

– لذلك رحل نابليون دون أن يتيح له مناقشة القرار.

وهرش ذقنه في حيرة: إنه حتى لم يلتقِ به قبل رحيله.

– فلنتوقع مفاوضات قريبة بينه وبين الإنجليز أو العثمانيين، أو كليهما، للرحيل عن مصر.

قال الرمادي: لو أننا واصلنا طرق الحديد وهو ساخن، فسيقترب يوم خروج الفرنسيين.

كانت سفن الإنجليز قد أبحرت من الإسكندرية في اتجاه قبرص. تسلل بونابرت إلى السفينة التي عادت به إلى بلاده في ظل خلو الميناء من أسطول الإنجليز. رافقه برتييه، مورا، ولانس، ومارمون، وأوجين دي بوهارنيه، وبرتوليه، ومونج. ركبوا الفرقاطتين كارير وموريرون. أقلعتا — أول الليل — بعيدًا عن الإسكندرية. حتى بولين فورييه، لم يبلغها باعتزامه العودة إلى فرنسا.

فصل

شق موكب القائد العام كليبر — في هيبة — شوارع وسط البلد من الأزبكية إلى القلعة، يصحبه الكتبة والصيارف، يركبون الجنائب والبغال والرهوانات، ويتقدمه القواسة والمقدمون، بأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة، والنبابيت، وينادون في الناس: هذا هو السلطان القائد العام. انحنوا له أيها المسلمون!

صعد الموكب إلى القلعة. قدم كليبر تطميناته لأعضاء الديوان بأنه لا يحمل إلا الخير لكل المصريين.

أردف بصوته الأجش: إنني قلما أنزعج من الأشرار. أهل الخير سيراقبونهم ويعرفونني بهم. الشرير يجب أن يعاقب.

يقينه أن تعاون المشايخ مع الحملة ضرورة مؤقتة فرضتها الظروف. يذهب الفرنسيون — كما يتمنون ويتوقعون — فيعود كل شيء إلى حاله.

فصل

هاجم العثمانيون العريش، واستولوا عليها. فعلوا في الجنود الفرنسيين الأسرى ما فعله بونابرت في أسرى يافا من العرب والأتراك. قتلوهم جميعًا. واصل العثمانيون تقدمهم نحو القاهرة، تسبقهم تحريضات للمصريين بأن يعلنوا الجهاد.

قال كليبر لخاصة ضباطه: أعرف أن الأعوام الماضية كانت كابوسًا مزعجًا.

وداخل صوته تغير: تبددت كل الأحلام الوردية، ولم يَعُد أمامنا إلا الرد على التمرد اليومي للمصريين!

ثم في نبرة حاسمة: ما نملكه هو القتال فتهيئوا له!

تهامس الناس في الأسواق باقتراب الجيش العثماني من مصر. قال الشيخ المقدسي إن خروج الفرنسيين لملاقاة الجيش الهمايوني سيتبعه خلو الأماكن كلها منهم، فيسهل على المصريين توجيه ضربات قاصمة إليهم لا يقوون على ردها.

ترقب أهل مصر قدوم العثمانيين، وأعلنوا الجهاد في سبيل الله، وأعدُّوا أنفسهم للانضمام إلى قوات الخلافة، وأقدموا على قتل من صادفوه داخل القاهرة من الفرنسيين، وأقاموا المتاريس على نواصي الطرقات، وفي التقاطعات والمفارق.

أحدثت أنباء قدوم الجيش العثماني إلى مصر ما أزعج الفرنسيين. توزع تفكيرهم بين دفع قوات الباب العالي، والتصدي لثورات المصريين. استدعى المسيو فورييه أعضاء الديوان. أبلغهم نبأ احتلال الجيش العثماني القادم من سورية مدينة العريش. تحدث عن ضرورات الحرب، تقضي باعتقال عدد من يؤثرون في الأحداث. أنهى كلامه بالإشارة لجنوده. اقتادوا المشايخ الأربعة: عبد الله الشرقاوي ومحمد المهدي ومصطفى الصاوي وسليمان الفيومي، مع علماء آخرين، إلى سجن القلعة. ظلوا فيه مائة يوم. لم يخرجوا إلا بعد توقيع الصلح بين قوات العثمانيين والفرنسيين على أن تخرج الثانية من مصر المحروسة، وتتجه إلى رشيد وأبو قير، قبل أن تترك البلاد كلها.

فصل

قال الكابتن جوزيف ماري ديزيه: لو أن المصريين سكتوا عن وجودنا، ربما أهمل نابليون العودة إلى فرنسا، وأقام هنا دولته المستقلة!

كان التصرف الصواب — في تقدير كليبر — هو الجلاء عن مصر. إذا لم يكن الجلاء ممكنًا في ظل الحصار الإنجليزي، العثماني، وثورات المصريين — فإن المفاوضات هي السبيل لقيام صلح يحفظ للجندي الفرنسي — في عملية الجلاء — كرامته. واجه ارتباكًا في إعداد قواته للسفر من مصر. قال إن بونابرت بدأ قبل رحيله مفاوضات مع الباب العالي. خاطب ضباطه بالقول: مضيت في تلك المفاوضات حتى الآن، والأمر الآن متروك لكم إن أردتم العودة إلى فرنسا، لكنني لا أستطيع قبول المقترحات المعروضة عليَّ. وأعتقد أنه لا يوجد جندي لن يفضل الموت على ترك أسلحته. فهل سيرغب في العودة إلى الوطن عاريًا، مجردًا من كل شيء، وكأنه متشرد طرد من بلد كان يُخشى يومًا جانبه فيها؟

أرسل إلى الأميرال الإنجليزي سميث يطلب وساطته في عقد اتفاق مع الدولة العثمانية لتنظيم جلاء قوات الفرنسيين. عقد اجتماع بين الصدر الأعظم والأميرال الإنجليزي وضباط

فرنسيين. وقَّعوا اتفاقًا، يقضي بجلاء قوات الفرنسيين من مصر — بكل أسلحتها — على سفن إنجليزية.

قال كليبر لضباطه وجنوده: سترون الوطن بعد أربعة أشهر، وإن خدمتكم للوطن في الجيش الفرنسي ستكون أكثر فاعلية مما هي في مصر.

بدأ كليبر في سحب قواته من القاهرة إلى الإسكندرية. اقتربت قوات العثمانيين — من ناحية مقابلة — لاستلام مواقع في القاهرة. عرف القائد الأعلى للأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط ما آلت إليه قوات الفرنسيين من ضعف. رفض اتفاق العريش، وأمر أن تبحر السفن الإنجليزية، وعليها قوات الفرنسيين — بعد إعلانها بالأسر — إلى إنجلترا بدلًا من فرنسا.

هاجم كليبر — بالمفاجأة — قوات العثمانيين الزاحفة إلى القاهرة. هزمها في المطرية وعين شمس. انتصر التنظيم الفرنسي على فوضى العثمانيين، وطارد القوات العثمانية إلى بلبيس، ثم إلى يافا.

حقق الفرنسيون انتصارًا أضعف من قوتهم. لا سلاح، ولا عتاد، ولا مؤن. اكتفى بونابرت بتحديد مهلة الإنقاذ. تواصل النزف من الجسد المثخن بالجراح.

الباب التاسع

فصل

قالت زينب للانزعاج في عيني أبيها: فورة وتنتهي.

صار لها علاقاتها المتشابكة بضباط فرنساوية. رفضت تلميحات الجنود. لا تهمل انتماءها إلى عائلة من الأشراف، ولا تهبط من القائد العام إلى جندي بلا شأن.

شاهدها حميدة أبو قطة في بركة الأزبكية؛ حيث أرباب الملاهي والمغنيات والغوازي والخواطي والراقصين والراقصات والبغايا والحشاشين وشاربي الخمر والحواة والسحرة ولاعبي القمار والقرود والفسَّاق والعياق وأهل الأهواء وطوائف الرميلاتية والخلابيص.

أحدث الفرنسيون بغيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة، تتعالى في جنباتها أصوات الطبول والزمور والكمنجة والقانون والعود والرباب والصاجات والرق والدفوف. يلتقي فيها النساء والرجال للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة، كل من يدخل يدفع مقابلًا، أو يكون حاملًا لتذكرة تبيح له الدخول.

أذهل مختار الرمادي أن بنت البكري تعطي جسدها للكفار، بينما المعلمة ريحانة صاحبة فرقة العوالم بناحية باب الخلق ترفض أن يرقص نساؤها أمام جنود الفرنسيين، حتى لا تصيبهن أعين الكفار بالنجاسة.

طوح مختار الرمادي شومته في الهواء. تلقفها وهو يدور حول نفسه. هوى بها على جسد غير مرئي. دار في وقفته، ثم عاود الضرب.

هتف الناس باسم عمر مكرم. بدا المنقذ والأمل المرتجى.

وضع مختار الرمادي والذين معه أسلحتهم تحت يدي السيد عمر مكرم، يأمر باستخدامها على النحو الذي يريده، وفي المكان — أو الزمان — الذي يحدده.

قال الرمادي: اغتصب البكري منصب نقيب الأشراف، والأولى به منصب نقيب الخونة!

خرج السيد من عزلته الاختيارية. لزم بيته منذ أن أعاده نابليون من يافا إلى القاهرة. غضب من تخاذل المماليك. لم يَعُد أمامه إلا أن ينادي المصريين ليدافعوا عن أنفسهم.

سار المنادون في المدينة، يذيعون في الناس ما ينبغي لكل واحد أن يقوم به، وما يجب على الجميع أن يتبعوه.

لبى الناس نداء عمر مكرم. خرج كل من كان في القاهرة من الرجال. لم يبقَ في داخل المدينة إلا العجائز والنساء والأطفال. تنازل الجميع عن معظم ما يملكون لشراء السلاح والذخيرة والخيام.

مضى عمر مكرم وشهبندر التجار أحمد المحروقي، وطائفة من البكوات، إلى التلال خارج باب النصر. انضم إليهم أتراك خان الخليلي والمغاربة المقيمون في مصر والحجازيون. تبعهم كثير من ذوي المهن والحرف والصناعات، ومن العامة والحرافيش، يحملون العصي والنبابيت والبنادق والسيوف والخناجر. يخترقون الدروب والعطوف، وأصواتهم تعلو بكلمات مغنَّاة من اختراعهم. قدِمت جماعات من الدرب الأحمر والتبانة وسوق السلاح وباب الوزير، وطوائف من العدوية والأسيوطية.

عمل التجار بنصيحة السيد عمر مكرم. جمعوا الأموال، ودبروا إنفاقها. تعهد المحروقي بتغطية نفقات حفر الخنادق، وإقامة المتاريس والاستحكامات، وغياب الرجال عن أسرهم، وإمدادهم بالطعام والشراب. تأثرت صلته بالفرنسيين — للمرة الأولى — منذ دخولهم مصر. ظلت له عندهم حظوة شبيهة بما كان له أيام المماليك. اختاره القائد العام عن التجار في الديوانَين العمومي والخصوصي. رافق نابليون في رحلته إلى السويس. تبدَّلت حساباته، وتصرفاته بالتالي، بتصوره — عند قيام الثورة — أن دولة الفرنسيين زالت. لم يقتصر إسهامه على التأييد المادي والمعنوي، لكنه شارك بنفسه في الإعداد والتنظيم والمواجهة.

بدأت الأحداث في حي بولاق. جمع أهل الطوائف، كل طائفة من أبنائها، ما يغطي تكاليف الخروج على الفرنسيين. نودي بالنفير العام. خرج الناس إلى المتاريس. وأغلق التجار دكاكينهم، وأغلقوا الأسواق.

خرج الجميع إلى بر بولاق. أولاد البلد وأولاد العرب ومساتير الناس والزعر والحرافيش والفلاحين والأعراب.

أجاد أهل القاهرة تنظيم أنفسهم. تسلحوا بكل ما بلغته أيديهم من البنادق والفئوس والخناجر والعصي والشوم والسكاكين. أنشئُوا معملًا للبارود في بيت قائد أغا بالخرنفش.

صنعوا المدافع والذخائر. لجئوا إلى ما خلَّفه الفرنسيون من قطع المدفعية في ضواحي القاهرة. أنشئوا مصنعًا حربيًّا في بيت القاضي، وفي قاعة المحكمة، وفي الخان المجاور. صنعوا قنابل من حديد الجوامع والمطارق وآلات الحرفيين. أقاموا مصنعًا للبارود في بيت قائد أغا. توزعوا على أبواب البيوت، وفي الخلاء، وعلى نواصي الشوارع والميادين. أعدوا المتاريس والخنادق والحفر العميقة، وقفوا وراءها يحملون الأسلحة. عملت محال صهر المعادن في تشكيل أسلحة من الحديد والنحاس، بلط وسيوف وخناجر ومدى. وقف الرجال على متاريس أقاموها عند تقاطعات الطرق، وأخذوا على أنفسهم السهر في الدروب والعطوف لدرء أية محاولة للهجوم.

أشرف السيد عمر مكرم بنفسه على كل شيء. تنقل بين الرجال وراء المتاريس، وفي النواصي، وفوق الأسطح. صار جميع أهل مصر، والعساكر كلها، واقفة بأطراف البلد، عند الأبواب والمتاريس والأسوار. حملت النساء الطعام إلى الرجال وراء المصدات والمتاريس، وفي الخلاء.

تحزم الحاج مصطفى البشتيلي وزملاؤه من التجار. هيجوا العامة، وهيئوا عصيهم وأسلحتهم، وتقدموا الجميع إلى نطاق الفرنسيين في ساحل البحر. قتلوا من أدركوه منهم، واستولوا على جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيرها. عادوا إلى القاهرة، ففتحوا المخازن التي أودع بها الفرنسيون أغراضهم. أخذوا كل ما استطاعوا الوصول إليه، ثم عملوا كرانك حول البلد، ومتاريس، وتصايحوا بدعوة الجهاد.

في الثامن من إبريل عام ١٨٠٠م شن الفرنسيون هجومًا عنيفًا على أجزاء من بولاق. أحرق العديد من الدور. سقط المئات جرحى وقتلى، محتسَبين عند الله شهداء. تعالت الجثث برائحة تؤذي النفوس.

ما أزعج الفرنسيين أنهم يعتبرون بولاق مساوية للقاهرة تمامًا. هي — في تقديرهم — أشد أهمية من الجيزة. سكانها يزيدون عن أربعة وعشرين ألفًا، وبها أربعة وعشرون مسجدًا، وثلاثون وكالة أكثر اتساعًا وأبهة مما في القاهرة، وميناؤها يستقبل سفنًا محملة ببضائع الدلتا وواردات أوروبا. كان الفرنسيون قد أضافوا إلى أهميتها بشق طريق طويل يربطها بالقاهرة عند قنطرة المغاربة.

أُخلي حي بولاق من سكانه. تصور الفرنسيون ميلهم إلى الاستسلام. ما كادوا يمضون خطوات في داخل الحي، حتى عاجلتهم طلقات المدفعية. ألقيت النساء — من فوق أسطح الدور — بقطع الحجارة وقوالب الطوب والماء المغلي.

استمات المدافعون المتحصنون داخل البيوت، وخلف المتاريس. رفضوا أن يلقوا أسلحتهم. قالوا: إنه ما دامت الحرب مستمرة في القاهرة فإنهم لا يمكن أن يستسلموا.

أعلن مراد بك نفسه سلطانًا فرنسيًّا. قدم للفرنسيين ما كان ينقصهم من المؤن والذخائر. سلمهم من لجأ إليه من عساكر العثمانيين. أرسل ما احتاجوا إليه من المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الملتهبة لإشعال الحرائق التي تقضي على الثورة. دارت المعارك من حارة إلى حارة، ومن بيت إلى بيت. لجأ جنود الفرنسيين إلى أبشع ألوان القتل والتدمير والنهب. ارتكبوا ما لا يمكن تصوره من الفظائع. لم يُبعِد الثوار عن مواقعهم إلا إضرام النار في كل شيء. احترقت بولاق بالكامل. لم يَعُد يوجد فيها إلا الدمار.

امتدت الأحداث إلى كل أخطاط القاهرة وشوارعها وحواريها ودروبها وعطوفها وأزقتها. من باب الفتوح وباب النصر والعطوف إلى الحسينية وباب الشعرية. من بيت القاضي إلى الخرنفش. من بركة الرطل إلى درب الجماميز. من بركة الفيل إلى طولون. صعدت إلى المحجر والقلعة، وإلى زين العابدين. تناثرت أسماء علي الإسكافي وعلي السايس ومختار الرمادي وحسن الجداوي وإسماعيل القاضي ومحمد الجوهري وتاجر الكتان محمد أغا الطويل.

عاد المشايخ الشرقاوي والمهدي والفيومي والعمروسي من مفاوضات مع الفرنسيين في الأركان العامة. طالبوا بإيقاف الحرب، وأن تعود الأحوال إلى ما كانت عليه قبل الثورة، فلا جزاء ولا عقاب. كرر الشيخ الشرقاوي نصيحته بأن يتوقف الناس عما بدءُوه، ويظهروا الخضوع لقوات الفرنسيين. أدرك الناس أن الشيخ أَلِف الترف والرفاهية، وأنه يستريح إلى الدعة أكثر من التهيؤ لرفض وجود الفرنسيين. رفضوا إيقاف المعارك. إذا أراد الفرنسيون الرحيل، فليرحلوا. وإذا أرادوا تنظيم إقامتهم، فالمعارك لا بد أن تستمر. رمى المتمردون عمائم المشايخ، وأسمعوهم قبيح الكلام. عابوا عليهم أنهم واصلوا الفرنسيين، وانضموا إليهم، وسايروهم، ولاطفوهم في أغراضهم. قالوا: هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيين، ومرادهم خذلان المسلمين، وقد أخذوا دراهم من الفرنسيين. ضرب المتردون المشايخ، ورموا عمائمهم في الأرض، وسبُّوهم بشتائم قاسية.

عاد المشايخ إلى بيوتهم حاسري الرءوس.

جمع الحرافيش ما أطلق على المدينة من القنابل والقذائف، ولم ينفجر. حاولوا إعادة رميها على الفرنسيين. ترك جنود الفرنسيين ثلاثة مدافع في ساحة المعركة بالمطرية. أتى بها الأوباش من موضعها، وأعادوا تجهيزها. أطلق نصوح باشا نيرانها على قصر الألفي،

حيث يقيم القائد العام. وضع الزعر مدفعًا في حديقة بيت البكري بالأزبكية. قصفوا به مقر قيادة الفرنسيين في بيت الألفي.

تحول الفرنسيون إلى القاهرة. جرى القصف والتدمير، وإشعال الحرائق والتقتيل. رفض أهل القاهرة أن يتركوا مدينتهم. أقسموا بالله ورسوله أنهم يؤثرون أن يُدفنوا تحت الرماد والأنقاض على أن يرَوا المدينة وقد سقطت من جديد في أيدي الكفار. رفض الجنود الأتراك كذلك إطاعة الأوامر بالجلاء عن المدينة.

توالى إطلاق القنابل والرصاص من أعلى القلعة، ومن الشوارع المحيطة بميدان الرميلة، ومن أعلى الدور. امتد الخراب والتدمير والحرائق والفوضى والسلب بما لم يحدث من قبل. هدموا مسجد النقيب، وضربوا ما حوله. أزالوا البنايات من أحياء بأكملها. هدموا كل القصور المطلة على الأزبكية. تحول الحي إلى كثبان من الخرائب والرمال والأتربة. تساقط البمب في الصنادقية وبين القصرين والسكرية وقصر الشوق والغورية. أكد أهل المشهد الحسيني أن بركات ابن بنت الرسول منعت القذيفة التي سقطت أمام بيت القاضي من الانفجار.

دخل الفرنسيون القاهرة بقوة المدافع. نهبوا بيت السيد عمر مكرم، ونهبوا بيوت الأمراء الذين ناصروا أهل القاهرة في الدفاع عن مدينتهم. اعتقلوا الحاج مصطفى البشتيلي. وجدوا البارود في وكالته مخبئًا في القدور والزلع وتحت البلاطات.

تحصن الزعر في بيت أحمد أغا شويكار. يسميه الفرنسيون «بيت رينيه» على اسم جنرال فرنسي من قادة الفرنسيين.

سد الفرنسيون مداخل القاهرة تمامًا. صار من الصعب أن ينفذ أحد، سواء كان من الداخلين إليها، أو الخارجين منها.

عانى المصريون أيامًا قاسية. فرضت الضرائب الباهظة، وكثرت المصادرات، ومات الكثير من التجار والعلماء والعامة في السجون، وتحت قسوة التعذيب.

هجم الجنود الفرنسيون بالليل كأنهم خفافيش الكهوف والأماكن المظلمة. لكثرة عمليات اقتحامهم بيوت المصريين، سُموا عفاريت الليل. العفاريت تفاجئ الناس ليلًا، مثلما يفاجئهم جنود الفرنسيين في الوقت نفسه. هجر الكثيرون دورهم وأماكن رزقهم، وشهدت أطراف القاهرة مظاهر هجرة غير مسبوقة.

لم يَعُد بوسع الأهالي مقاومة العنف الفرنسي، ولا تحمُّل الحصار. دامت الثورة أربعة وثلاثين يومًا. أحدثت من التدمير والخراب ما لا يوصف، وأزالت من الوجود ما يصعب حصره.

قُتل في المعارك ما بين ثمانمائة وثلاثة آلاف من المصريين، وحوالي ألف وسبعمائة جريح. بالإضافة إلى ما بين سبعمائة وألفين من الأتراك والمماليك، وسقط الكثير من البيوت عند المفارق من جامع عثمان كتخدا إلى رصيف الخشاب، ومن خطة الرويعي إلى حارة النصارى. صارت كلها تلالًا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات، ولا مواطن أنس ونزاهات.

فصل

أمر القائد العام كليبر بتزيين القاهرة ثلاثة أيام. دخل القاهرة في ٢٧ أبريل. تقدَّم الموكب عساكر على الجياد، يأمرون المصريين بالوقوف عند اقترابه، يهينون بالضرب والشتم من يتباطأ في ذلك.

صدرت الأوامر بقتل كل من يحمل السلاح ضد الفرنسيين، لا مساءلة حتى لو قُتل كل الأهالي. البشتيلي هو الوحيد الذي استثناه كليبر من العفو العام. اعتبره المحرض الرئيسي على التمرد. عثر لديه على رسالة يقول فيها لعثمان كتخدا: الكلب دعانا للصلح، فأبينا. أمر القائد العام أعوان البشتيلي — إذلالًا له ولهم — أن يقتلوه بأنفسهم. طافوا به المدينة، ثم انهالوا عليه بالنبابيت، حتى مات.

فرض القائد العام على أهل طنطا غرامة خمسين ألف ريال، وخمسين ألفًا أخرى على علماء المدينة، واقتيد اثنان من العلماء إلى قلعة الجبل، فسُجنا فيها. وفرض الفرنسيون على الشيخ سليمان الفيومي غرامة خمسين ألف ريال، واعتقلوه حتى دفعها. هرب شهبندر التجار أحمد المحروقي إلى الشام، فلا يلحقه أذى الفرنسيين. عرفوا بمشاركته في الثورة، فأزمعوا عقابه.

دُهي الناس بهذه النزلة التي لم يصابوا بمثلها، ولا ما يقاربها. ومضى عيد الأضحى دون أن يلتفت إليه أحد، ولا يشعر به. نزل البلاء والذل بالجميع بما لا يوصف. لم يجد الدائن من يدينه، ولا من يشتري منه متاع بيته. ضاق الناس، وتمنوا الموت.

فصل

زار العلماء كليبر. ارتدوا أفخر ما لديهم من الثياب. تصوروا أنه سيشكرهم على الوساطة بين أهل مصر والفرنسيين.

فاجأهم القائد العام بالقول من خلال ملامح متجهمة: كنت أظنكم أعقل الناس لأنكم المثل والقدوة ... لكن السرور الذي استقبلتم به العثمانيين جعل نفاقكم واضحًا.

غالب الشيخ العمروسي ارتباكه: قلتم لنا إنكم أصدقاء السلطان، وهو — كما تعرفون — سلطاننا القديم، وسلطان المسلمين.

قال كليبر: لماذا لم تمنعوا الرعية عن محاربتهم لنا؟

قال الشيخ الفيومي: لقد تقوَّوا علينا بغيرنا. وحين أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال، لجئوا إلى حربنا وبهدلتنا!

قال كليبر: إذا كان الأمر كما ذكرتم فلا تستطيعون إسكات الفتنة ... ما فائدة رئاستكم إذَن؟

ثم في نبرة مفعمة بالغضب: أنتم تستحقون المعاملة التي عومل بها أهل بولاق.

وغالب غضبه ببسمة سخرية: نحن لن نقتلكم، وإنما سنأخذ منكم الأموال.

فرض غرامة عشرة ملايين من الفرنكات على مائتي شخص، نصفها نقدًا، ونصفها عينًا. يستثنى منها أهل القاهرة لأنهم لم يعودوا يملكون شيئًا، ويُستثنى منها الشيخ البكري لما تعرض له من إيذاء المتمردين، والشيخ المهدي الذي أُحرق بيته.

شكا الشيخ الشرقاوي ما لحقه من أذى على أيدي المصريين، بسبب ما دعا إليه من الخنوع والتوقف عن المناوءة. عوضه الفرنسيون عما ادعى أنه نُهب منه. وعاد الرجل إلى اتفاقاته القديمة معهم.

لم يكن القائد العام ينوي قتل المشايخ. لعله وجد في قتلهم ما يُحدث ارتباكات، ويضيف أعباءً جديدة. وجد في فرض الغرامة ما يدفع به رواتب الجنود المتأخرة، ويصلح مالية الجيش، ويعصر مصر كما تُعصر الليمونة.

اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد الأمير بجامع سارية. ادَّعوا أن ابنه كان أحد المحرضين على الثورة.

سأله الضابط الفرنسي بليار: أين ولدك؟

قال الشيخ: مقيم في بيتي بفوة.

– غير صحيح. إنه عند العثمانيين الذين يتهيئون لدخول البلاد.

– إن شئتم أرسلت إليه بالحضور.

– سأمهلك ثمانية أيام، مسافة الذهاب إلى فوة، والعودة منها. إذا لم يحضر الولد فستدفع الثمن!

انتهت الأيام الثمانية، دون أن يحضر ابن الشيخ. اعتقله الفرنسيون، وحبسوه في القلعة.

اتهم القائد العام شيخ السادات بأنه هو الذي كان وراء ثورتَي القاهرة الأولى، والثانية، وأنه دفع أموالًا للمتمردين في حي قناطر السباع … فرض على الشيخ غرامة باهظة. وكان يُضرب مرتين في اليوم الواحد لإجباره على دفع الضريبة الباهظة. أهمل كليبر ما سبق لنابليون من العفو عن الشيخ السادات بعد اتهامه بزعامة الثورة الأولى: أعرف أنه يجب قطع رأسه، لكن هذا القتل سيأتي بمساوئ أكثر مما يأتي بالفوائد. الرجل اسمه معروف في الشرق كله، وقتله يعني جعله شهيدًا.

أعاد كليبر القول: هذا الرجل هو زعيم التمرد.

قال نابليون: عليك إذَن أن تقتله رميًا بالرصاص!

أردف في لهجة مؤنبة: الأوفق أن يكون للمصريين زعماء من نوع هذا الرجل، لا يحسنون ركوب الجياد، ولا استخدام السيف، بدلًا من زعماء مثل مراد بك.

ثم وهو يهز رأسه: قتل هذا العجوز لن يفيد شيئًا، وربما حقق نتائج سلبية بأكثر مما نتصور!

عرف الشيخ بدر المقدسي من أعوانه أن ما يواجهه شيخ السادات هو نتيجة وشاية من مراد بك. ظل في نفسه توبيخ شيخ السادات له، عندما قدمت أنباء دخول الفرنسيين الإسكندرية، بأن ما حدث هو نتيجة أفعاله وتعديه هو وأمراؤه على متاجر المصريين، وأخذ بضائعهم. أغرى القائد العام بشيخ السادات. وكان كليبر ينقم عليه منذ الأيام الأولى لقدوم الفرنسيين.

اكتفى مراد بك بمتابعة الأحداث. لم يحاول المشاركة في الثورة على أي نحو. فضَّل أن ينتظر حتى تبين الكفة الراجحة، فيضع ثقله فيها.

بعث مراد إلى الفرنسيين يتودد إليهم، ويلتمس مصالحتهم، على أن يتولى أمر الصعيد، يطلقون فيه يده هو وجنده ومماليكه. أرهقته مناوشته للقوات الفرنسية في الصعيد. رحل بونابرت، وحل كليبر بدلًا منه، فلماذا لا يعرض المهادنة والتعاون؟

وقع كليبر مع مراد اتفاقية سلام وتحالف. يحكم مراد — بمقتضاها — الصعيد الأقصى جنوبي بلدة بلصفورة. يُمنح خراج إقليم جرجا. يؤدي «الميري» إلى السلطة الفرنسية، بدلًا من حكومة السلطان. يموِّن الحامية الفرنسية في ميناء القصير، يساعدها في حالة الاعتداء عليها.

أهمل مراد دعوة الجهاد، واستبدل بها المضي إلى الصعيد، يتصور فيه الاطمئنان إلى صداقة الفرنسيين. بلغت الأهالي نصيحة مراد بك للعثمانية والمماليك بمصالحة الفرنسيين، هاجت، ووضعت أيديها على خيول الأمراء والمماليك العثمانية. حبستها، وأهانت هؤلاء الأمراء والأغَوات، وأهانت من مال إلى الصلح من مشايخ الديوان.

فصل

نزل شيخ السادات، وركب إلى داره. لم يَعُد في غياب الأمن ما يساوي كل ما عُني به: الرخام الملون، والأعمدة الفاخرة. حولها مساكن ومخادع وقصر لجلوسه، ومكان لإقامة الحريم، ودار بها رواش ومساقٍ وبستان عامر بأنواع الشجر.

ذهب معه عشرة من العسكر، وجلسوا على باب داره. لما مضت حصة من الليل، حضر إليه عشرة من العسكر أيضًا. أركبوه، وطلعوا به إلى القلعة، وحبسوه في مكان. أرسل إلى عثمان بك وتداخل عليه، فشفع فيه.

قال له القائد العام: أما القتل فلا نقتله لشفاعتك، وأما المال فلا بد من دفعه، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه.

قال شيخ السادات: لم يحدث قط أن والدي ولا من ربوني قد ضربوني. على العكس، إن الكبراء والعلماء كرَّموني واحترموني دائمًا، وأبدى الأمراء الاحترام نفسه!

قبض الفرنسيون على فرَّاش الشيخ السادات ومقدمه، وحبسوهما. ثم أنزلوه إلى بيت قائمقام، فظل فيه يومين. ثم صعد به الجند إلى القلعة ثانية، وحبسوه في حاصل. ينام على التراب، ويتوسد حجرًا، وأسرفوا في إهانته، ووالوا عليه الضرب. لم يردعهم مقامه المستمد من نسبه ومولده، ولا منزلته بين مواطنيه.

ظل الشيخ في سجنه يومين آخرين، ثم طلب زين الفقار كتخدا. طلع إليه وهو وبرطملين.

قال لهما الشيخ: أنزلوني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعي.

استأذنا له، فنزل إلى داره. أحضر ما وجده من النقود، تسعة آلاف ريال، منها ستة آلاف فرانسة. وقوَّم الفرنسيون ما وجدوه من الذهب والفضيات والثياب الثمينة وغيرها بأثمان بخسة، مجموعها خمسة عشر ألف ريال فرانسة. بلغ مجموع النقدية والمقومات واحدًا وعشرين ألف ريال، والعسكر يحيطون به، حتى لا يصعد إلى أهله، وإن كان قد وزع أهل بيته وابنه إلى مكان آخر، ولاذ أكثر أتباعه بأماكن مجهولة.

واصل الجنود تفتيش الدار، والبحث في أرضها عن الخبايا. حين لما لم يجدوا شيئًا، اقتادوه ماشيًا إلى بيت قائمقام. وواصلوا ضربه خمس عشرة عصا في الصباح، ومثلها في المساء. وأحضروا تابعه محمد السندوبي ليدله على مكان زوجة الشيخ وابنه. أكرهوه على الإقرار حتى اعترف. أحضروا المرأة والولد. أودعوا الولد عند أغَوات الإنكشارية، بينما حبسوا الزوجة معه.

كانوا يضربونه أمام عينَيها، وهي تبكي، وتولول. وكان شاغلهم هو النكاية والتشفي.

تشفع الشيوخ الشرقاوي والفيومي والمهدي ومحمد الأمير وزين الفقار كتخدا. استعاد القائد العام قول نابليون: نحن إذا كسبنا تأييد كبار شيوخ القاهرة، كسبنا الرأي العام في مصر كلها. ليس بين زعماء مصر كلهم من هو أقل خطرًا علينا من الشيوخ، فهم عاجزون عن فعل شيء، ويوحون بالتعصب دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين.

نقل الجنود زوجة الشيخ السادات إلى بيت الفيومي، وظل الشيخ في سجنه، ووضعوا معه مقدمه وفرَّاشه.

في الخامس من محرم ١٢١٥هـ أصعدوا الشيخ السادات إلى القلعة، ومنعوه من الاجتماع بالناس. ظل في اعتقاله، لم يفرجوا عنه إلا في قيادة الجنرال مينو. وكان قد سدد الغرامة المفروضة عليه. واستولى الفرنسيون على حصصه وإقطاعه، وقطعوا مرتباته، وكذلك جهات حريمه، والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه، وشرطوا عليه ألا يترك قصره، ولا يجتمع بالناس، وألا يركب دون إذنٍ من القائد العام، ويقتصد في أموره ومعاشه وتقليل أتباعه.

الباب العاشر

فصل

مختار الرمادي ...

التفت ناحية الصوت. تبين رامي خشبة، التاجر بالحمزاوي. يُعرف صلته بالفرنسيين. أدرك أنه يواجه مأزقًا. دلهم الرجل — لا بد — على موضعه. لاحظ تردده على سكة المناصرة. لاحقه بالمتابعة قبل أن يبلِّغ جيش الفرنسيين عن وجوده في المناصرة، في هذه اللحظة. قدِم إليها لشراء أدوات لدكانه..

عاود التلفت — في اللحظة التالية — إلى المكان من حوله. كان يستبدل بالميادين والشوارع الواسعة، طرقًا جانبية، ضيقة، مزدحمة. الزحام يهب الفرصة للاختباء، في تلاصق الأجساد ورائحة البشر والدواب. شعر — بخلو الشارع — أنه عار. لم تكن الاحتمالات تخيفه، ولا تخيفه الحياة في الخطر. داهمه خوف من المجهول لم يشعر به من قبل، ولا تصور أنه سيعانيه. ربما منذ حدثته تغريد عن القيء الذي عاودها ثلاثة صباحات. لن تنذر النذور، وتطوف على كتاب الأحجبة وقارئي الفنجان، وعلى الأضرحة والمقامات. تدفعها أمها إلى ما كانت تجد فيه تعجيلًا بالحمل. تستكين لما تعرف أن أمها ستفعله: الشراب الممزوج بخنافس مسحوقة، تفتح صدرها فتلقى فيه الأم ضفدعة ذكرًا، لكي تحمل ويأتي المولود ذكرًا، تخطو — وهي ميتة من الخوف — فوق ثعبان يتلوى على أرضية الحجرة. تمسك الأم بالمصحف وهي واقفة، يجري لسانها بأدعية ورقًى، بينما تمر تغريد من تحت المصحف المرفوع سبع مرات، وسخونة البخور في المبخرة — من تحت — تشوي ساقيها.

أشفق عليها لما قالت من بين شفتين متقززتين: إذا خيرت بين الموت وما أتعاطاه، أختار الموت!

قال مختار: اختيارنا هو الطفل الذي يجعلني أبًا.

رفضت أم تغريد ما عرضته أمه، لما أخفق ما لجأت إليه من أفعال في وضع البذرة داخل أحشائها. ضرب لها الرمل مُنجم في ناحية الصنادقية. طالبها بنذور لأهل العوالم السفلية، وتحدث عن الاستعانة بالسحر لتحقيق الأمنية المشتهاة.

هل يسلب الخوف من المجهول شجاعته؟ هل أخطأ بإهمال عمله وبيته؟ أو أنه أخطأ بالزواج؟

خروجه إلى الفرنسيين جاء تاليًا لنزوله في بيت المعلم شيحة. لو أن الأمور لحقها تقديم أو تأخير، ربما مضت إلى وجهة مختلفة. ربما ظل عزبًا، مسئولًا عن نفسه وحدها. يترصد للفرنسيين، يقاتلهم، يأكل ما يقدَّم إليه، وينام حيث يلحقه التعب، يهمل الاختفاء والاستتار عن أعين الفرنسيين وبصاصيهم.

اندفع إلى باب جانبي، موارب. صعد السلمات الحجرية. قفز من فوق النظرات المتسائلة، والخائفة، والصرخات. دفع باب السطح. ارتبك لرؤية المرأة تثبت الغسيل بالمشابك على المناشر. نطَّ من جانبها إلى السطح المجاور، ثم إلى أسطح أخرى، متلاصقة. اصطدم بنساء وأطفال ومناشر غسيل وقطع أخشاب ودجاجات. هبط إلى طوابق تحتية، وصعد إلى طوابق عالية.

حين طالَعه ميدان الرميلة في أسفل، فطن إلى أنه اقترب من البيت. توقف ليسترد أنفاسه. قفز إلى السطح الملاصق. هبط السلالم إلى شقته في الطابق الثاني. تنهد لرؤية تغريد تفتح الباب. دسَّ جسده بجوارها تحت الغطاء، التصق بها. أشفقت من الرعشة في صدره، فطوقته بذراعها.

فصل

كان القائد العام، ينصرف من دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب. تناول الغداء مع قيادات جيشه. مال — والمهندس المعماري بروتان — إلى الرواق الطويل، تظلله تكعيبة عنب. يفضي إلى دار القيادة. فاجأهما الشاب. في حوالي الثلاثين. جسده أميل إلى الضمور، وجهه شاحب، مسحوب إلى أسفل، ووجنتاه بارزتان، وأنفه مدبب حاد، ونظراته ساهمة.

أظهر الشاب ذو الزي الأزهري أنه صاحب حاجة يستغيث. أفلت من الحراس، تقدم نحو القائد العام.

أدرك الجنرال أن الشاب يتسوَّل. ما أكثر الذين يستوقفونه لصدقة. قبل أن يجاوز الشاب، مد الشاب إليه يده بمظلمة. مد كليبر يده. قبض عليها، ووجه باليد الأخرى ثلاث طعنات. صرخ كليبر في تألم وهو يقبض على ساعد المهندس المعماري. كانت طعنة الخنجر قد نفذت إلى الصدر.

هتف: إليَّ أيها الحراس.

وسقط على الأرض.

جرى الشاب. جرى وراءه بروتان حتى أدركه. لم يكن تهيأ لعراك. لحقه الشاب بست طعنات، فقتله في الحال.

عاد الشاب إلى كليبر الغارق في دمه. طعنه — للتأكد من موته — ثلاث طعنات. لكن الطعنة الأولى كانت قد انتزعت السر الإلهي.

صرخة كليبر وهتافه نبَّها العسكر. ارتفع صوت النفير، وحدثت فوضى. قدِم مئات الجند من ميدان الأزبكية، يتنادون بالثأر للقائد القتيل. هاجموا — بتأثير ما حدث — كل من صادفهم في الطرقات من المصريين. لم يفرقوا بين ذكر وأنثى، ولا بين طفل وشيخ. حركهم الدافع إلى الانتقام. قال القائد العام مينو لكبار المشايخ والوجهاء: لا بد من عقاب كل من تسبب في هذه الجريمة، وإلا فسنقتل أهل مصر عن آخرهم!

واصل الجند التفتيش في الطرق الخالية، وبين الدكاكين، والبيوت المغلقة. لم يكن القاتل قد ترك موضع اختبائه في الحديقة، فعثر عليه الجنود، وقد غطت الدماء ثوبه. اقتادوه إلى بيت أركان الحرب. عثروا على الخنجر في الموضع نفسه.

نُقل جثمان كليبر إلى حديقة قصر العيني. دلي التابوت المغطى بعلم الفرنسيين في حفرة وسط الحديقة. لا يظل فيها، وإنما يعودون به إلى فرنسا. استجوب الجنرال مينو القاتل. واجهه المعماري بروتان. توالت الأسئلة: اسمه؟ دينه؟ ماذا أتى به إلى مصر؟ من حرَّضه؟ من أسر إليهم من أهل مصر بما كان يُعِد لارتكابه؟

ذكرت روايات عن ترصد القاتل للقائد الفرنسي منذ أيام. وقف على باب مقر القائد الفرنسي في الجيزة، بيده عريضة يريد تسليمها. رفض بيروس — سكرتير الجنرال — دخوله. أمر الجند، فطردوه إلى خارج المقر. رآه الياوران ديفوج — صباح يوم الجريمة — وسط جماعة من الخدم. يعرفهم الياوران جيدًا. خمن أنه من العمال الذين يعملون في عمارة السراي، فطرده إلى الحديقة. لم ينكر الشاب فعلته، ولم يعتذر عنها. زاد فأدان أبناء العرب والإسلام على تخاذلهم، وحمد الله على توفيقه في قتل القائد العام كليبر.

هو سليمان. طالب علم من حلب. أبوه تاجر اسمه أمين. مسلم من حلب التابعة لبلاد الشام. عمله طلب العلم والكتابة. لم تكن هذه هي زيارته الأولى لمصر المحروسة. أتى إليها في السابق، وله فيها هذه المرة خمسة أشهر.

نفى أن يكون ما فعله بتحريض من أحد. واصل رؤساء الفرنسيين استجوابه. أعادوا الأسئلة نفسها، وضيقوا على الشاب الحلبي بملاحظات، ثم اتبع معه الرومي بارتملي — يسميه العوام فرط الرمان — طريقة التعذيب. باح بكل ما كان يخفيه، وبواعث ارتكاب جريمته. حرضه على قتل الجنرال ضابطان تركيان، وأرسله أغا الإنكشارية لعملية القتل. قدِم من غزة قبل شهر، وتنقل في أكثر من مكان. أفشى الخطة السر لثلاثة من أهل مصر. جاء الجند بالرجال الثلاثة. أخضِعوا للأسئلة المتوالية والتعذيب، فاعترفوا. أضافوا قولهم إنهم لم يتصوروا إقدام الحلبي على تنفيذ ما انتوى فعله.

سليمان الحلبي ...

استعاد مختار الاسم. ربما التقى به في رواق الشام بالأزهر، أو وكالة التجار السوريين بالطوفة.

قال مختار: أقدم الحلبي على ما عجزنا عن فعله.

قال الشيخ المقدسي: لا تجلد نفسك ... لعله وجد الفرصة التي لم نجدها.

وانزلقت حبات المسبحة بين أصابعه: هو طالب بالأزهر، واجبه الديني يدفعه لنصرة الإسلام.

فصل

طبَّقوا العدالة على طريقتهم.

مثُل الشاب الحلبي أمام المحكمة العسكرية. مقيدًا بالأصفاد، ويحيط به جنود. بدأت المحكمة أعمالها بالاطلاع على تقريرَي الطبيب الشرعي للقتيلَين كليبر والمهندس بروتان.

– اسمك؟

في نبرة واثقة: سليمان الحلبي.

– ديانتك؟

– مسلم.

– مصري؟

– من أهل حلب.

– ماذا تعمل؟
– صنعتي طلب العلم والكتابة.
– متى جئت إلى مصر؟
– منذ خمسة أشهر.
– لماذا؟
– ليست هذه أولى زياراتي إلى القاهرة.
– من أرسلك؟
– لم يبعثني ولا حرضني أحد ... جئت بأمر من نفسي.
– من يعرف سرك من أهل مصر؟
– لا أحد ... لم أكاشف أحدًا بسرِّي.
– أنت تنكر ما اعترفت به من قبل.

وأشار إلى الجنود الفرنسيين المحيطين بالحلبي: استدعوا له ذاكرته!

والى الجنود ضربه. شكلوا عليه أنواع التعذيب. استخدموا من الوسائل ما لا قِبل لبشر على احتماله. أجبره التعذيب — الذي لا يطاق — على الاعتراف بكل ما اعترف به، وأنكره.

طلب رئيس المحكمة من الشاب أن يروي الجريمة من بداياتها.

أنكر الشاب ما حدث، وأنكر صلته بالخنجر، وأن الجنود صادفوه خارج الحديقة. أمر قائد الجند مينو بضربه حكم عوائد البلاد. حالًا انضرب، فطلب العفو، ووعد أنه يقر بالصحيح.

أحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوي، ومعه قاضي مصر الشيخ أحمد العريشي. أودعوهما سجن القلعة إلى منتصف الليل، ثم ألزموهما البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكر الحلبي أسماءهم في اعترافه. استجوب المشايخ الذين ائتمنهم على سر قتله. كرر عليهم الضرب، فاعترفوا.

قال القائد العام مينو: ما نوع الإعدام عند المصريين؟

قال الشيخ البكري: إنها أنواع (وعد بأصابعه) قطع الرأس وتعليقها على رمح في موكب يمر بالأسواق ... التوسيط من أسفل السرة ... ينقسم الجسد إلى نصفين ... غرس خازوق بالأرض، يرفع المذنب على قمته ...

قاطعه مينو: هذا هو العقاب الأنسب لقاتل القائد كليبر.

لم يكن ثمة من يدافع عن المتهمين في مواجهة الادعاء. عيَّنت المحكمة الترجمان لوماكا للدفاع عنهم. صدرت الأحكام — في النهاية — بحرق اليد اليمنى للحلبي، ثم وضعه على الخازوق حتى الموت، وتترك جثته ليأكلها الطير.

أما الشبان الأربعة الذين كتموا السر: محمد الغزي وأحمد الوالي وعبد الله الغزي، والهارب عبد القادر الغزي، فتقطع رءوسهم.

نفذت الأحكام فوق تل العقارب بالقاهرة في ١٧ يونيو ١٨٠٠م. قطعت رءوس المشايخ الثلاثة أولًا. ظل الحلبي في لحظات إعدامه هادئًا، يردد الشهادتين، ويتلو آيات من القرآن. بينما كان الجلاد بارتملي يحرق يده اليمنى، أخذ عليه أنه حرق كوعه بالفحم، وهي عقوبة غير مشروعة.

وضع الحلبي فوق الخازوق. تعذب لبضع ساعات، دون أن تصدر عنه آهة تألُّم. ناوله جندي فرنسي كأسًا من الماء، اختصر عذاباته.

فصل

دعا شيخ الصوفية مريديه وأتباعه لقراءة الفاتحة على روح سليمان الحلبي. نال الشهادة دفاعًا عن دين الإسلام. لم يغفر علماء الأزهر للفرنسيين ما عاناه الشيخ السادات على أيديهم من صنوف القهر والإذلال. ضربوه، وصادروا أمواله، ودفعوه إلى بيع أملاكه، وفاء لما فرضوه عليه من غرامات. هو شيخ عظيم المقام، ومن الإساءة للإسلام، وللمسلمين، أن يتعرض للإيذاء. أذِن العلماء للحلبي بالإقامة ثلاثين يومًا داخل الأزهر، وسكتوا عن نيته المعلنة في قتل كليبر.

فصل

لم يجد المصريون في اعتناق مينو للإسلام تصرفًا صادقًا. هو أقرب إلى النفاق، ربما لأن زبيدة استهوته، فلم تهبه نفسها دون زواج، أو لأنه أراد استمالة المصريين، فلا تناله مقاومتهم. هي ابنة أسرة شريفة النسب، من رشيد، أبوها السيد علي الرشيدي، ومطلقة من سليم أغا. أظهر حالة العقد الإسلام، ونطق بالشهادتين، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها. إيمانه أن فرنسا قدِمت إلى مصر لتستقر فيها. يختلف مع كليبر الذي أعلن عدم اقتناعه — منذ الأيام الأولى لوصول الفرنسيين — بجدوى بقائهم في مصر.

أعاد مينو تكوين الديوان من تسعة مشايخ: الشرقاوي والفيومي والأمير والمهدي والبكري والسرسي والجبرتي والرشيد. عني بإشراك أهل مصر في إدارة بلدهم. شارك في الاجتماعات مشايخ الحارات ومشايخ الطوائف وأشخاص من العامة. أجرى تعديلات في تعيين القضاة، وتغييرات في أساليب القضاء. ظل الديوان يعقد اجتماعاته، رغم احتجاز عدد من أعضائه في القلعة.

كان كليبر قد أفرج عن شيخ السادات، بعد أن جرده من معظم ممتلكاته، وضيق عليه الاشتغال بالأمور العامة.

شدد على مراد بك أن يظل هادئًا في الأقاليم التي منحت له، ولا يتراسل مع سورية، أو يقيم علاقة تخابر مع الجيش الهمايوني. لمح باشتباهه في أن مراد يُعِد لمخططات شريرة.

أقام البكري مأدبة باذخة لمينو وكبار قادته، بمناسبة المولد النبوي. حضرها بعض الموظفين العموميين وكبراء البلد. أضاء بيته في الأزبكية بالقناديل، وعلق على واجهته الأشاير والأعلام، وارتفعت البيارق، ذات اللونين الأحمر والأخضر، وعلت مدائح المتصوفة من مريدي الطريقة البكرية، وانطلقت الشهب والألعاب النارية والصواريخ والمفرقعات.

أما الضباط فقد أقلعوا عن تزيين بيوتهم، وعن إقامة الحفلات والمآدب، والتردد على قاعات العروض المسرحية، والتعامل بمنطق البقاء في مصر بلا انتهاء.

أصبح الانسحاب في مدى الأفق.

الباب الحادي عشر

فصل

قال القائد العام: إذا كنا قد نجحنا في إخضاع المصريين، فكيف نُخضع الطاعون؟

وتهدج صوته بالانفعال: يبدو أن القوى الغيبية تناصر هؤلاء الناس!

قال الكابتن جوزيف ماري مواريه: ألا تلاحظ أن جنودنا لم يُلقوا السلاح طيلة أعوام الاحتلال؟!

ونمَّت لهجته عن استياء: أربعون في المائة من الضباط والجنود سقطوا بين قتيل ومفقود.

هز مينو رأسه مؤمِّنًا: ما أثق فيه أن محصلة الحملة خسارة مؤكدة!

تفشَّى الطاعون في مصر كلها. أفلت الساحل من الإصابة، بينما أكل الوباء القاهرة، وسقط ثلث سكان مصر العليا ضحايا للمرض اللعين. انتشر كما لم يحدث من قبل. الفئران والدم والموت. لم يستطع الأطباء إيقاف الكارثة. خرج العدد عن حد الكثرة. مات به ما لا يُحصى من الأطفال والشبان والجواري والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء. تزايدت أعداد الوفيات في اليوم الواحد ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة مصري في اليوم الواحد. لم يَعُد للناس إلا ذكر الموت وبواعثه ومواعظه. ولم يَعُد من وقت أمام المغسلين يريحون فيه أبدانهم. أصيب بالعدوى نصف جنود الحملة. ارتفع عدد ضحايا الطاعون وجرحى المعارك إلى ألفين، وقتل أكثر من خمسمائة، وفقد نظره بالرمد ألف جندي.

لم يخلُ شارع ولا حارة ولا بيت من النحيب والبكاء والعويل والصوات. تعددت مشاهد الجنازات، وارتماء النسوة في الشوارع، وعلى أبواب البيوت، ينخرطن في النحيب والصراخ. أهمل الناس مراعاة قواعد الجنائز. هلك من الخلق أكثر من عشرة آلاف شخص في شهر واحد.

فصل

طالب القائد العام بإبطال رفع الأذان في غير مواقيت الصلاة. الأذان في غير موعد، إشارة التنفيذ لعمليات ضد جنود الفرنسيين.

كانت الحياة تغيب عن المدينة من العشاء حتى مطلع الفجر. الخروج من الدور مغامرة. يترامى — من خلف الأبواب المغلقة — إيقاع خطوات الجند. يبحثون عن مخابئ سرية وسراديب وأنفاق، يُخفي فيها الثوار الأسلحة، ينتقلون من موضع إلى آخر، يلوذون بالفرار من القاهرة إلى تلال الدراسة، أو متعرجات المقطم.

تحددت الأيام في التوقع والانتظار ودوي القنابل والرصاص.

سأل البكري في اجتماع الديوان عن أصوات المدافع في القاهرة. ترامت إليه في بيت الجودرية. هل هي من جانب الفرنسيين، أو من جهة أخرى؟

قال الشيخ العريشي: تقاربت الجيوش فلا نستطيع تبين الجهة التي تطلق نيران المدافع.

قال البكري: أنا أثق في قدرة الجيش الفرنسي على الدفاع عن القاهرة.

ثم في صوت هامس يقطر توجسًا: الحذر من الخيانة هو ما نطلبه الآن. على مشايخ الأحياء وعساكر الجندرمة أن يبلغوا عن المفسدين.

أظهر المعلم شيحة تخوُّفه من محاولة اقتحام الحسينية. أقام الفرنسيون حصنين هائلين على جانبي الحي من الخارج، فيصعب الدخول إليه.

قال مختار الرمادي في تأكيد: سنستعيد الحسينية من الفرنسيين.

وهز قبضته: أعرف أن الكثيرين سيستشهدون … لكن دخول الحسينية يستحق دماءنا.

فصل

بدأت قوات العثمانيين وقوات الإنجليز — عقب رحيل نابليون — في مناوشة قوات الفرنسيين. ظلت المعارك متواصلة، متقطعة، وثورات المصريين قائمة في الداخل.

أوصدت في وجوه جنود الفرنسيين كل الطرق المؤدية إلى الإسكندرية. صارت حامية الإسكندرية مفصولة عن حامية القاهرة. وقع من ركبوا القوارب في أسر سفن الإنجليز والعثمانيين، وفتك الأهالي بمن صادفوهم في الطريق، أو قيدوهم أسرى. لم يبلغ الإسكندرية

إلا العدد القليل من جنود الفرنسيين. ترامت الأنباء باستيلاء قوات العثمانيين على رشيد والرحمانية، وتقدُّمها نحو القاهرة، تؤازرها قوات الإنجليز. وأنزل الأسطول الإنجليزي عشرة آلاف جندي في أبو قير.

واصلت القوات العثمانية زحفها — ترافقها قوات الإنجليز — نحو الإسكندرية. هزمت فيها قوات الفرنسيين. توالت الهزائم وأعداد القتلى. بلغت خسارة قواته أربعة آلاف، بين قتيل وجريح وأسير، في يوم واحد. زاد نقص المياه، وتفشى الطاعون. طلب القائد العام هدنة، يُعِد قواته خلالها للجلاء عن مصر. تخلَّى — بتواصل معاناة الجيش الفرنسي — عن أحلامه بالبقاء الأبدي للفرنسيين في مصر.

قال مينو: أنا أشد الفرنسيين إيمانًا بضرورة بقائنا في هذا البلد.

استطرد في نبرة تسليم: مع ذلك، فإني أبدأ قيادتي للحملة بالتفاوض على الخروج من مصر.

اختلف مع كليبر — منذ البداية — في النظرة إلى معنى الحملة وجدواها. لم يجد كليبر فائدة في فتح مصر. بينما تحمس هو للأمر. مصر هي البديل لمستعمرات جزر الأنتيل الضائعة. تصبح فرنسا سيدة تجارة إفريقيا والهند بما ستنتجه مصر من البن والسكر والقطن والنيلة وغيرها.

كتم الضباط والجنود الضيق في نفوسهم للقب عبد الله الذي أردف به الجنرال مينو اسمه. تغيير دينهم جعله أقل شعبية بين الجنود. أضافوا إلى استيائهم إطلاق اسم سليمان على وليده من زبيدة، وهو اسم قاتل كليبر. اعتبروه مرتدًا عن دينه، وتشككوا في قدراته العسكرية والإدارية. لم يكن يمتلك هيبة بونابرت، ولا هيبة كليبر. ميزته الوحيدة أنه الأكبر سنًا بين الجنرالات. وسيلته إلى قلوب الجنود هي دفع مرتباتهم، وتلبية احتياجاتهم، من ميزانية تعاني الجدب بصورة واضحة. لم يكن كذلك يمتلك الكفاءة ولا الشجاعة ولا الخيال المنطلق مما ميَّز سلفَيه بونابرت وكليبر. واجهه أحد ضباطه بالقول: إن الموقع الذي يجدر بك الوقوف فيه هو المطابخ وليس قيادة الجيش!

قال الكابتن جوزيف ماري مواريه: ربط الرجل مصيره وعواطفه بامرأة من هذا البلد، فهل يفكر في التخلي عن أسرته الجديدة ليعود إلى فرنسا، حيث يواجه السخرية؟

فصل

ظهر مراد بك بعد طول احتجاب.

أقام معسكرًا على الضفة الغربية في نيل القاهرة، بينما كانت الكتائب الفرنسية قد تجمعت في مدخل الحي الأوروبي، غربي القاهرة، بين القاهرة والنيل. نشطت المراسلات بين مراد بك وبين الفرنسيين، عبر الست نفيسة والمسيو روزيتي. ظل إبراهيم بك على تردده. اعتزم الانضمام إلى الفرنسيين بشروط مشابهة لشروط مراد بك. ثم تخلَّى — في آخر لحظة — عما اعتزمه.

انتقل مينو إلى الإسكندرية، وتولى بليار قيادة الجيش الفرنسي في القاهرة. لكي يضمن بليار السكينة، اعتقل في القلعة شيخ السادات وأعضاء الديوان: الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي، وعددًا من المشايخ والوجهاء والتجار. تزايدت الاعتقالات بتهم شتى: التفوه بأقوال معادية للفرنسيين، حيازة أسلحة، التجسس. ونفذت إعدامات في القلعة.

ضاق الخناق على قوات الفرنسيين. اتفق الفرنسيون وممثل الباب العالي على أن يخلي الفرنسيون مدينة القاهرة، وينسحب الجند بأسلحتهم وعتادهم ومدفعيتهم وذخائرهم إلى رشيد عن طريق البر، بحذاء شاطئ النيل الغربي. إذا انتهوا إلى رشيد، حملتهم السفن العثمانية والإنجليزية إلى موانئ فرنسا على البحر المتوسط.

طالب الفرنسيون بثلاثة آلاف كيس من الأموال، تعويضًا عما سيخلفونه من سلاح ومال. رفض ممثلو الباب العالي ما طلبه الفرنسيون. قالوا: إن ما ستتركونه وتسمونه مال الجمهورية، وكل ما في أيديكم، سوف نحصل عليه، فلا تماطلوا ولا تضيعوا الوقت.

قال المعلم شيحة: إن التاجر أحمد المحروقي جمع من أهل القاهرة خمسة عشر ألف مديني لسد المبالغ التي طالب بها الفرنسيون.

قال مختار: أخشى أن يسلبنا الأتراك والإنجليز ثمرة جهادنا.

وارتفعت نبرات صوته، فبدت خطابية: لولا ثوراتنا المستمرة، ما شغلهم حتى مجرد التفكير في طرد الفرنسيين.

قال الشيخ مدين الهمشري خادم مسجد السيدة فاطمة النبوية: مطلبنا هو إجلاء الفرنسيين عن بلادنا ... النتيجة لا الوسيلة.

قال مختار: لتظل البلاد في أيدينا لا في أيدي العثمانية والإنجليز.

اربد وجه الشيخ: هل تساوي بين القوات المسلمة وقوات الكفار؟!

وأشاح بيده في إنهاء للمناقشة: قوات العثمانيين تمثل دولة الخلافة التي ندين لها بالولاء.

رمقه مختار بعينَين متأملتَين، كأنه يريد أن يعيد اكتشافه. ثم هز رأسه دون معنى محدد، وسكت.

تحدث المعلم شيحة عن السيد عمر مكرم. هو أشد العلماء ترقبًا لكشف الذين تعاونوا مع الفرنسيين. قامات طويلة وقفت موقف الذل والمسكنة. يشغله — في الوقت نفسه — استرداد منصب نقيب الأشراف. حصل عليه خليل البكري بلا حق، عليه أن يتركه بلا مماطلة.

لحق الطاعون مراد بك، فأزهق روحه، لم يهنأ بإمارته على إقليم الصعيد، واستولى مماليكه على كل ما خلفه من أموال وأمتعة وأراضٍ.

فصل

لما طال غياب مختار عن البيت، قال المعلم شيحة في لهجة واثقة: لا تخشوا على مختار فهو في أمان.

أدرك العجوز أن مختار مضى وراء الفرنسيين، يتابعهم ومئات العامة وأبناء البلد. لا يهبون ثقتهم حتى لانطلاق الجنود العثمانيين والإنجليز وراء الفرنسيين. واصل الجيش العثماني زحفه نحو القاهرة من ناحية الشرق، وزحف الجيش الإنجليزي من رشيد، وتكاثرت عمليات المصريين في داخل البلاد.

في منتصف يونيو ١٨٠١م كانت قوات الإنجليز والعثمانيين قد وصلت بالقرب من القاهرة. كتب بلياز إلى مينو: ما عاد من الجائز أن ننخدع فيما يتعلق بوضعنا. أعتقد أن انتظار وصول عون هو من قبيل التعلل بالأوهام.

صدر بيان يعلن أنه قد تم عقد الصلح بين جيش الفرنسيين من ناحية، والجيش الهمايوني والإنجليز من ناحية ثانية.

فصل

توقع المعلم شيحة أن يفتش جنود الفرنسيين البيت — كعادتهم — وينصرفوا. فاجأه سؤال الضابط: أين مختار الرمادي؟

كتم المعلم شيحة ارتباكه. ظل على صمته وهو يرمق الضابط بنظرة محايدة.

أعاد الضابط القول: أين زوج ابنتك؟

قال المعلم: ما دمتَ لم تجده فهو ليس هنا.

– أسألك أين هو؟

– لا أعرف!

عرف الفرنسيون بأمر مختار الرمادي. وشى به أرصادهم، فضيقوا عليه الخناق. تعددت الكمائن التي نصبت للإيقاع به. عرفوا «مختار» دون بقية الاسم. لم يعرفوا ملامحه، ولا مهنته، ولا أين يسكن. هو مختار فقط. تصدر أفعال عوام المصريين بأفكاره وتخطيطه.

فصل

تلكأت قوات الفرنسيين في الجلاء عن الإسكندرية. ظهر أنهم ينتظرون وصول إمدادات من فرنسا. دار قتال عشرة أيام، خرج فيه الفرنسيون من الطوابي على ضفتي بحر مريوط وطابية العجمي. قتلت أعداد كبيرة في داخلها. قدَّم القائد العام طلبًا بالهدنة ثلاثة أيام، يتفاوض في أثنائها لتسليم الإسكندرية.

سلَّمت الإسكندرية قلاعها وحصونها وبناياتها وكل ما يقع في دائرة المدينة في مدى عشرة أيام. ركب عساكر الفرنسيين سفنًا أُعدت لنقلهم إلى فرنسا.

أصر الرمادي على أن يتحرى أحوال جيش الفرنسيين برؤية العين إلى بلوغه رشيد، ثم تحملهم السفن إلى الموانئ التي بدأ منها غزوهم قبل ثلاث سنوات. تدافع الأولاد بين أرجل الكبار، يتطلعون إلى الجيش المنسحب.

انضم المعلم يعقوب — وعدد من أعوانه — إلى الفرنسيين في انسحابهم. ركبوا الفرقاطة الإنجليزية «بالاس» مع قوات الفرنسيين. أبحرت ناحية قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى.

كان يدبر الأمور لهم، ويُعِد أنواع المكر والخدع، ويطلعهم على الأموال والنفائس المخبوءة، ويبرر أفعالهم. وافق نابليون على أن يرافق ديزيه في حملته لمطاردة مراد بك، وإخضاع الصعيد. جهز للحملة ما يلزمها: أمن طرق المواصلات، نظم الأمور المالية والإدارية، وفق بين ما كان معمولًا به في البلاد، وما أصدره الجنرال ديزيه من أوامر. عاد من حملة ديزيه فأوكل إليه القائد العام كليبر تنظيم مالية البلاد، وتحصيل ما يفرضه الفرنسيون من ضرائب وغرامات على التجار والوجهاء وعامة الناس. أهمل نصيحة بطريرك الأقباط بالعدول عن غيه، ومراعاة صالح مواطنيه من المصريين. شارك بنفسه — أحيانًا — في المعارك ضد العثمانيين والمماليك. أشد ما غاظ الناس من تصرفاته، حين هدم الأماكن المجاورة لبيته في حارة النصارى، خلف الجامع الأحمر. أحاط البيت بسور عظيم، أقام من ورائه أبراجًا ومدافع وحراسًا مسلحين.

وصلت الأنباء — بعد أيام من الرحيل — بموته. تعددت الروايات، وما إذا قتله الخمر، أو مات مسمومًا، أو قتله الفرنسيون. أغلب الروايات أن المعلم يعقوب أصيب بالحمى، بعد يومين من ركوب البحر. طلب — وهو يلفظ أنفاسه — أن يدفن مع صديقه الجنرال ديزيه في قبر واحد. احتفظ قائد الفرقاطة بجثمان المتوفى حتى بلغت مرسيليا، فدُفن في مقبرة المدينة.

ما حدث تناقلته النسوة على أعتاب البيوت، وعبر النوافذ والمشربيات، وتناقله الرجال على المقاهي، وفي الجوامع والزوايا والخلاء. حتى عمليات البيع في الأسواق، تخللتها أنباء وملاحظات وتعقيبات، وأنشد رواة السيرة سيرة المصطفى، وسيرة الهلاليين، وعنترة، والظاهر بيبرس، وحكايات علي الزيبق.

أزال أهل القاهرة من أولاد الناس والحرافيش والسوقة وأهل الحرف السافلة، ما أقامه الفرنسيون حول القاهرة، وفي شوارعها وميادينها من متاريس وحصون واستحكامات، وما حفروه من خنادق واسعة، وعميقة. ارتفع العلم العثماني على قلعة الظاهر بيبرس. رحل الجنود الفرنسيون في أثناء الليل، وتدفق العثمانيون على القاهرة. انطلقت الزغاريد من الطيقان، وفي الأسواق، وعلت صيحات الفرحة، وتكوَّنت الحلقات — تلقائية — تدور بالرقصات المنتشية.

ترك الناس للمعلم شيحة بَركة رفع المزاليج من أبواب الأزهر. ظلت مغلقة منذ ثورة القاهرة الأولى حتى جاء أوان فتحها. دعوه إلى صدارة المشهد. لمس المزاليج بيده، قبل أن ترفعها أيديهم في صخب من الفرحة.

أصبح التعرف على القاهرة أمرًا صعبًا. الدروب الضيقة تلتف حول البيوت المتهدمة والخرابات. هدم الفرنسيون أغلب المباني والمدارس التي كانت القاهرة عامرة بها. تحوَّلت إلى خرائب، القصور الفخمة والمستشفيات والمساجد والمدارس والمباني التي كانت القاهرة عامرة بها. لم تَعُد سوى مبانٍ متهدمة، وحطام ما كان يومًا — ذات يوم — أسوارًا قوية، وأبوابًا رائعة تحمي القاهرة ضد عدوان المغِيرين، وبلغت الحياة حدًّا من التعاسة والفقر والبؤس، يتنافى مع حياة البشر في أي مكان. امتلأت الشوارع والأزقة وأسطح المنازل بأجساد الضحايا، كما تسببت المجاعات في أن يهم الناس بأن يأكل بعضهم بعضًا، وانتشرت الأوبئة.

كان الفرنسيون قد أحالوا بعض المساجد إلى حانات يحتسون فيها الخمر، ويعبثون بالنساء. أفاد التلاميذ من مواضع الخرائب في تلقي العلم. في محاولات الفرنسيين إحالة

القاهرة إلى معسكر كبير، هدموا قباب المدائن قرب المقطم، ونبشوا القبور، لجأ عدد كبير من أهالي القاهرة إلى دفن موتاهم في البيوت، أو فيما تبقى من مساجد ومدارس.

ألصقت على واجهات الجوامع، وعلى النواصي، فرمانات تقضي بعدم التعرض بالأذية للنصارى واليهود وأهل الذمة، والاعتذار عنهم بأن الحال لهم على تداخلهم مع الفرنسيين صيانة أعراضهم وأموالهم.

قال المعلم شيحة: أعطى إسماعيل كاشف زوجته «هوى» الأمان لتعود إليه من الفرنسيين، ثم قتلها أهل القاهرة.

قال مختار: هذا الصباح، خرج آخر جند الفرنسيين.

فصل

ظلال الغروب تعلو الأسطح وأعلى البيوت. سكتت حركة الطريق. حتى الطيور فوق أشجار الجودرية لاذت بالصمت، وإن تناهت — كالصدى — جلبة السوق القريبة.

لزم بيته في أول الجودرية، حين أبلغه مريدوه أن أهل البلد أقاموا المتاريس في مفارق الطرق وعلى ناصية الشوارع. يرفضون السماح بالمرور لرجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة إلا لمن يثبت أنه لم يبِع نفسه. أُوقدت الشموع على الدكاكين، وعلِّقت القناديل في الثريات، وعلت الطبول والدفوف والزمور والأبواق والصنوج والمغاني في شوارع القاهرة وأسواقها، وارتفعت العصي بالتحطيب والرقص، وأطل النسوة من الشرفات والنوافذ والطيقان والأسطح، ووقفن على أبواب البيوت. علت أصواتهن بالأهازيج والأغنيات والزغاريد، وتصايح الرجال. ذاعت القصص والحكايات والألغاز والنكات والملح والنوادر والأزجال والمواويل. تلا القرَّاء آيات القرآن الكريم، وأنشدوا الابتهالات الدينية. نُحرت الذبائح، ووُزعت الصدقات على الفقراء والمساكين، ووزعت المقاهي أكواب الشربات، وازدحمت الحلقات حول شعراء الربابة والمداحين والمغنين. اختار المعلم شيحة — للتعبير عن فرحته — توسط حلقة ذكر أمام ساحة جامع شيخون. خرج إلى الطرقات أرباب المناصب والأكابر والأعيان والعلماء والفقهاء والمفتون بالشريعة المحمدية والخواص والعوام من أهل مصر المحروسة.

ألف وقع أقدام جند الفرنسيين أسفل البيت. يمضون في الدروب والعطوف المتشابكة. من قلعة الجبل وإليها. يميزها ارتطام الأحذية الثقيلة في أرض الطريق. أزال الفرنسيون — في مدى السنوات الثلاث والنصف الماضية — كل ما أعاق الاتصال بين مركز بونابرت والإدارات الفرنسية الأخرى، وصولًا إلى القلعة.

قالت الأم في خوفها: لماذا لم نرحل مع الفرنسيين؟ معاهدة الجلاء أباحت لأي مصري أن يرافق الحملة في عودتها دون أن يتعرض لأذى.

عرف بخروج عملاء الفرنسيين مع القوات المنسحبة إلى الروضة والجيزة، بمتاعهم وحريمهم: المعلم يعقوب، ويوسف الحموي، وعبد العال الأغا قائد الإنكشارية الذي ذاق أهل القاهرة الكثير من قسوته وبطشه.

– وزينب … نحن لا نعرف أين هي؟

توقع أن ينقض عليه أهل القاهرة، وعلى أهل بيته. ترامت الأنباء بما حدث للشيخ أحمد المتيني. حمل زعر الحارات والدروب والعطوف ألوان السلاح وآلات الحرب، تقدمتهم الصيحات بنصرة دين الإسلام. صعدوا إلى بيت الشيخ. أرغموه على النزول، وعلى أن يمتطي جواده. اقتادوه بزفة إلى ميدان القلعة. امتلأ بالخلق والبيارق والأعلام والنداءات. أجبروه على الوقوف فوق الجواد متساندًا على رجلين من بين الحشود. ردد ما لقنوه إياه: هذا جزاء من صالحَ الفرنسيين!

ثار هياج في الغورية وخط الصنادقية والفحامين وبيت القاضي وباب زويلة. رجم أهل البلد أعضاء الديوان، ومن كانوا على صلة بالفرنسيين بالطوب والحجارة، فطلبوا الهرب. من وقع في أيديهم سحبوه بالضرب والنكال وطالبوه بالتوبة. هدموا مصاطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس لمنع المرور إلا بإذن. وقف وراء كل متراس أعداد من أهل البلد والشطار والزعر، في أيديهم البنادق والشوم ووسائل الأذى.

بلغته الأنباء بأن الناس الغاضبة انقضت على بيوت الكثير ممن كانوا أصدقاء للفرنسيين، واستقبلوهم في بيوتهم، وبذلوا لهم الود والمساعدة. شملت عمليات الإعدام معظم أحياء القاهرة. هلل أهل القاهرة لإعدام الكلارجي مصطفى الطارتي — في ميدان باب الشعرية — بعد أن جعل نفسه في خدمة المعلم يعقوب، وتولى أمر اعتقال التجار وأولاد الناس، وحبسهم، وعقوبتهم، وضربهم.

أُدين مسلمون وأقباط بتهمة التعاون مع الفرنسيين، وبارتكاب المظالم وأعمال العنف. قُتلت نساء لإقامة علاقات محرمة مع الضباط والجنود والفرنسيين. وُضعن في زكائب، وأُلقي بهن في نهر النيل.

لم يجد حزبًا يستند عليه. تخلى عنه حتى من كان يعتبرهم خاصة أصدقائه وأتباعه وخدمه. لم يَعُد أمامه سوى الركون إلى التوقع، وما يُعِده له، ولآل بيته، هؤلاء الذين تابعوا ابنته بتهديداتهم، وطاردوه في المواضع التي كان يتنقل بينها.

– أين أنت يا زينب؟ وما المصير الذي ينتظرك، وينتظر أباك؟

اتجه إلى زوجته بملامح يائسة: وماذا نفعل في بلاد الفرنسيين؟

واغتصب ابتسامة مريرة: ليس عندهم أشراف فأكون نقيبًا لهم!

أحاط أعوان الرمادي بحديقة الأزبكية. خلت من الفرنسيين وأمراء المماليك وجنود الباشا. فتشوا البيوت بيتًا بيتًا، حتى وجدوا زينب مختبئة في بيت امرأة مشبوهة. تقدمتهم في الشوارع بجرسة من الأزبكية إلى الجودرية. اجتمع الناس في طريق الموكب، يتطلعون، ويسألون، ويتبادلون التعليقات. ثمة من يعرف الحكاية، وثمة من يسأل، وأعداد المحيطين بها للفرجة تتزايد حتى بلغ جامع بيبرس الخياط.

علا صوت خليل الرمادي، يأمر الجميع — ما عدا أعوانه — بالعودة.

اقترب وقع الأقدام المتلهفة في داخل البيت.

انفتح الباب عن زينب، يدفعها، ويحيط بها، جماعة من الرجال. شعثاء الشعر، حافية القدمين، ممزقة الثياب، وروحها مسحوبة من الخوف.

تنبه البكري على قول مختار الرمادي: نحن نمتن لك احتفاظك بنقابة الأشراف حتى عاد إليها السيد عمر مكرم.

ثم في نبرة ملمزة: عاد السيد عمر مكرم إلى نقابة الأشراف كما كان الحال قبل الفرنسيين.

تردد الشيخ، ثم قال: نصر من الله.

وداخلت كلماته رنة استعطاف: يعلم الله أني ما وضعت يدي في يد الفرنسيين إلا ليساعدوا أهل مصر على التخلص من ظلم المماليك.

قال محرم الدالي المجلداتي بسوق الوراقين: هل من مساعدة المصريين كل ما جرى من تدمير وإحراق وتقتيل واعتداء حتى على حرمات ديننا؟!

– ما يدريك أني لم أكن أعترض.

وهز قبضته: كنت أعترض.

أشار مختار إلى الفتاة: ماذا كانت تفعل الفتاة قبل أن يخرج الفرنسيون؟

هذا ما كان يتوقعه. تصور الأسئلة والأجوبة والملاحظات المعيبة. بدأت الأمور بما لم يُعَد له، وانتهت إلى ما لم يدُر في تصوره.

قال مختار: حتى احتفالات الفرنسيين التي اعتذرت أنت عن المشاركة فيها ... أصرت ابنتك على حضورها.

ماذا يعرفون عن حياته أكثر مما يعرفه؟

الدعوة تأتيه، مثلما تأتي لكتخدا الباشا والقاضي وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب. يظهر امتنانه للدعوة، وإن لزم البيت، فلا يخرج إلى الاحتفال. قهره الخوف من غضب أهل البلد منذ دخل عساكر الفرنسيين الجامع الأزهر. ركبوا الخيول، وبينهم المشاة، توزعوا في الصحن والمقصورة. قيدوا خيولهم بالقبلة. عاثوا بالأروقة والحارات. كسروا القناديل والسيارات. هشَّموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة. نهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع، والمخبآت بالدواليب والخزانات. دشتوا الكتب والمصاحف على الأرض. داسوها بأقدامهم. أحدثوا في الجامع، وتغوطوا، وبالوا، وتمخطوا، وشربوا الشراب، وكسروا الأواني، وألقوا بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه عروه، ومن ثيابه أخرجوه، ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش عن النهب وآلة السلاح والضرب، وخرج سكان الناحية يهرعون للنجاة بأنفسهم.

أزال الفرنسيون مراكز المتاريس، ونظفوها من الأتربة والأحجار المتراكمة، وأفسحوا الطريق للمرور. قضَوا على ما جرى في فتنة القاهرة، ودخلوا الأزهر، وأودعوا علماءه بيت البكري فزادوا في إحراجه. حتى النساء اللائي ألقي القبض عليهن، أودعن بيته.

قال مختار: هل تغاضيت عن علاقتها ببونابرت توهمًا أنك ستصبح حما السلطان الكبير؟

– هذا اتهام خطير!

– ابنتك كانت في بركة الأزبكية.

قال محرم الدالي: لعله كان مشغولًا باستعادة مملوكه الجميل!

وواجهه بعينَين مشتعلتَين: يا مولانا ... أنت الذي حرضتها على ما فعلت.

وهو يربت صدره: أنا؟

قال هادي بشر الطالب بالأزهر: ذهبت ابنتك إلى الفرنسيين بعلمك.

قال محرم الدالي: وأنت أتحتَ لهم دخول بيتك.

– هل كنت أقدر أن أمنعهم؟

هل كان يستطيع أن ينقلب على الفرنسيين؟ هل يبادلهم الصنيع الجميل بالإساءة؟

قال هادي بشر: لم يطالبك بونابرت بأن تهديه غلامك المفضل.

– هو الذي طلبه.

– يا شيخنا ... أنت تكذب.

ورفع كتفيه: نحن نعرف أن نابليون لم يكن في حاجة إلى هديتك!

واتجه إلى زينب بعينَين تفحان نارًا: ماذا كنت تفعلين في الأزبكية؟

قالت في خوفها: أنا تبت من ذلك.

قال للشيخ: ما تقول يا مولانا؟

الموافقة على قتلها هي ما يملكه خوفًا وتبرئة لنفسه من الشهرة التي لا يمكنه سترها، ولا يقبل عذره فيها، ولا التنصل منها. الرجال — إن رفض — ربما قتلوه هو أيضًا. أنقذه الخواجة أحمد بن محرم في أيام الفتنة، فمن ينقذه في غياب الفرنسيين؟

هجم العامة على بيته، ونهبوه، وهتكوا حريمه، وعروه من ثيابه، وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذو الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة. شفع فيه الحاضرون، وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك. أخذه الخواجة أحمد بن محرم المحروقي — شهبندر التجار — إلى داره، بالقرب من الغوري. حظي المحروقي بتقريب الحكام له، والإنعام عليه. تحقق له من المكانة ما يضعه في منزلة شيخ البلد. أسكن روع البكري، وألبسه ثيابًا، وأكرمه، وبقي بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة. عوضه الفرنسيون عما نُهب منه، ورجع إلى الحالة التي كان عليها معهم.

بعد رحيل قوات الفرنسيين، استعاد المشايخ — ممن شاركوه عضوية الديوان — هيبتهم. قدم الناس إلى بيوتهم، يطلبون المشورة والرأي، وانتظمت الصفوف من ورائهم لصلاة الجمعة في الأزهر والحسين والسلطان حسن والحاكم وابن طولون وغيرها. فتور العلاقات بين المشايخ والعثمانيين مضى كسحابة صيف عابرة. إسماعيل الخشاب — السكرتير السابق للديوان — هو الذي حرر بيانات العثمانيين عقب عودتهم إلى القاهرة. حتى الشيخ عبد الله الشرقاوي، أصبح — بعد أشهر قليلة من عودة العثمانيين — مستشارهم المسموع الكلمة. حتى المعلم يعقوب لم ينله الأذى، ولو لم يقبضه الموت لكان الآن في بلاد الفرنسيين، بعيدًا عن انتقام الحرافيش والغوغاء والزعر.

هو وحده عُزل من الوظائف التي كان يشغلها. عُزل من عمله نقيبًا للأشراف، ثم عُزل من مشيخة البكرية. لجأ — بعد رحيل الفرنسيين — إلى الاحتجاب، حتى ينساه الناس، ويُسقطوا ما يؤذي سمعته. حُوصر في البيت الذي اشتراه في شارع الجودرية، فلم يَعُد يستطيع — في مواجهة الكراهية — أن يتركه.

خشي مصير الموثوقين بالحبال، سحبهم رجال من أهل القاهرة أعلى قلعة الجبل، والخلاء، والمناطق البعيدة. استعاد ما كان يفعله الفرنسيون بأهل البلد. يوثقونهم بالحبال، ويودعونهم السجن. ربما اقتيدوا إلى محاكم، قضاتها من الفرنسيين، فتحكم بتبرئتهم أو إدانتهم. مضى الرجال بمن كانوا أصدقاء للفرنسيين إلى ميدان القلعة. أقروهم بالعقاب

والضرب، اعترفوا بما ارتكبوا في حق ناسهم، وفي حق أنفسهم. عاودوا الضرب، لم يرفعوه إلا بعد أن صحت توبتهم، وتقبَّلها الناس.

قال في صوت متلكئ: إني بريء منها.

قالت الأم وهي تغالب النشيج: ماذا تفيدون من قتلها؟

اقترب مختار من الفتاة. حاولت أن تجري ناحية الباب. أدخل محرم الدالي وهادي بشر — على الباب — ذراعيها في ساعديهما. اقترب مختار حتى لامست أنفاسه وجهها. لحق تواصل صراخها بإحكام حصار راحتيه حول رقبتها. سكتت، وإن ظلت العينان جاحظتَين، والفم مفتوحًا.

هنـــداوي